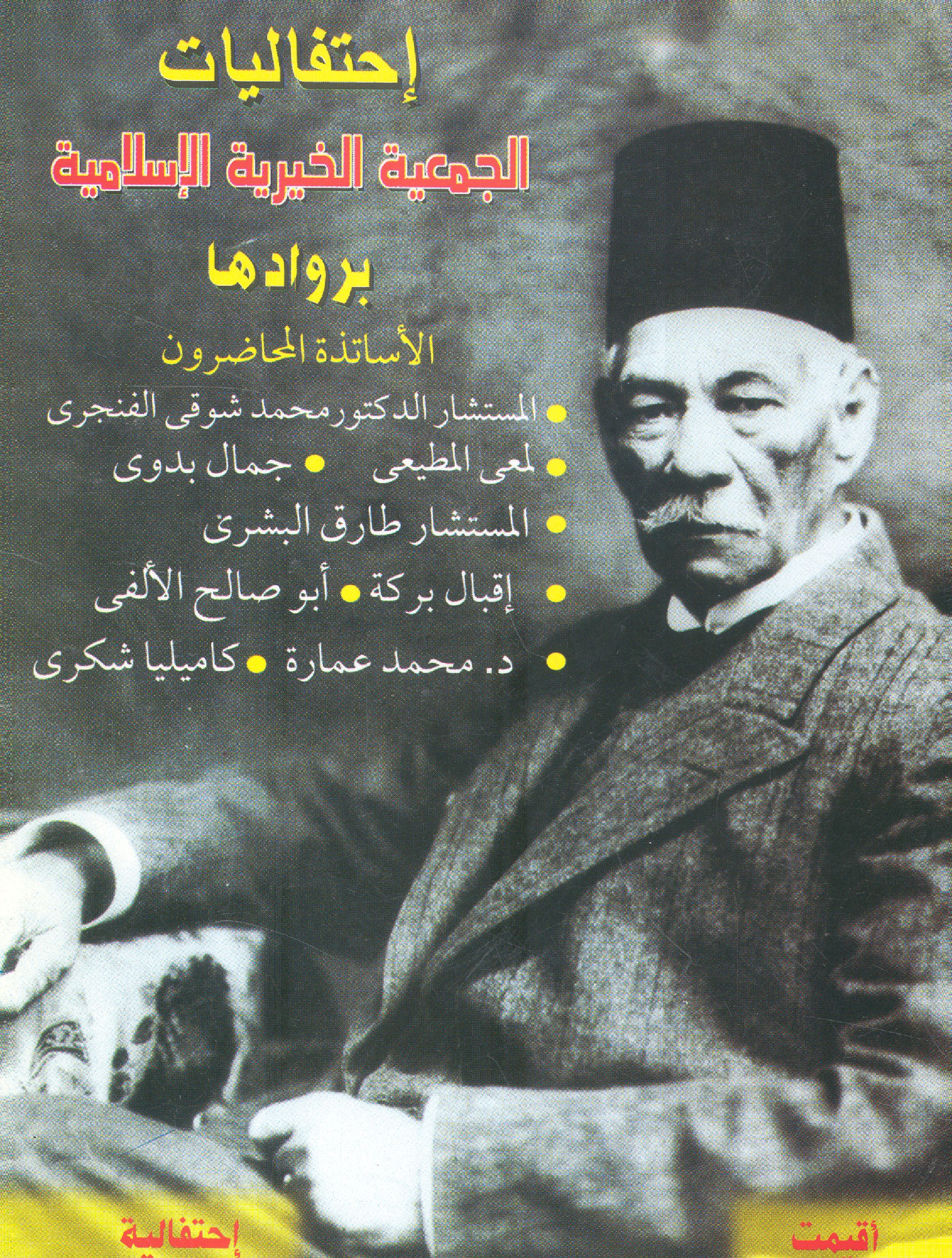


إحتفاليات
الجمعية الخيرية الإسلامية
بروادها
الأساتذة المحاضرون
• المستشار الدكتورمحمد شوقى الفنجرى
• لمعى المطيعى • جمال بدوى
• المستشار طارق البشرى
• إقبال بركة • أبو صالح الألفى
• د. محمد عمارة • كاميليا شكرى
إحتفالية
الزعيم سعد زغلول
أقيمت
٩ مارس ٢٠٠٢



إحتفاليات
الجمعية الخيرية الإسلامية
بروادها
الأساتذة المحاضرون
• المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى
• لمعى المطيعى • جمال بدوى
• المستشار طارق البشرى
• إقبال بركة • أبو صالح الألفى
• د. محمد عمارة • كاميليا شكرى
إحتفالية
الزعيم سعد زغلول
أقيمت
مارس ٢٠٠٢

احتفالية

الزعيم سعد زغلول

عضو مجلس إدارة الجمعية

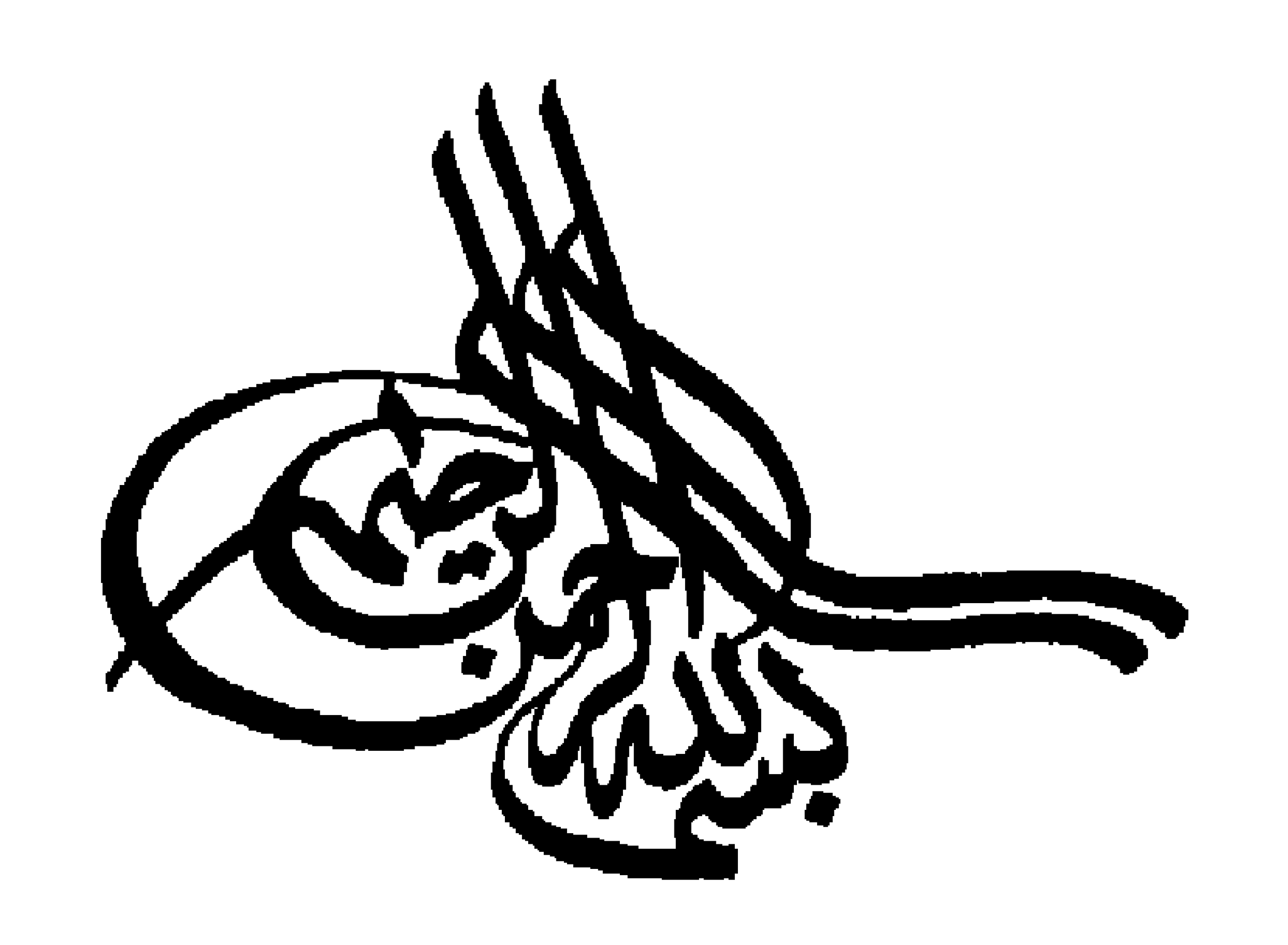
منذ نشأتها عام ١٨٩٢

●

عقدتها اللجنة الثقافية بقاعة المحاضرات

بالجمعية - ٩ مارس ٢٠٠٢

●









سعد زغلول وعلاقته بالجمعية الخيرية الإسلامية

كلمة المستشار الدكتور/محمد شوقى الفنجرى

رئيس مجلس إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على رسوله الكريم

مرحباً بالسادة المحاضرين والسادة الحضور



المستشار الدكتور/ **محمد شوقى الفنجرى**

تحرص الجمعية الخيرية الإسلامية، إلى جانب موسمها السنوى الثقافى، أن تقيم احتفالية لأحد روادها ممن أعطوها الكثير، بحيث تستقطب لكل احتفالية كبار المعنيين، وتصدر بكلماتهم كتاباً مستقلاً تقديراً لعطاء هؤلاء الرواد وتخليداً لذكراهم. فكان كتابُ احتفالية الإمام الأكبر الشيخ المراغى الذى تولى رئاسة الجمعية فى الفترة من سنة ١٩٤١ إلى سنة ١٩٤٥، ثم كتاب احتفالية طلعت باشا حرب أمين عام الجمعية لسنين طويلة حتى توفاه الله فى ٢١ أغسطس سنة ١٩٤١، ثم كتاب احتفالية لطفى باشا السيد الذى تولى رئاسة الجمعية لمدة طويلة من سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٩٦٣م.

واليوم تحتفل الجمعية بسعد باشا زغلول الذى كان عضو مجلس إدارة الجمعية منذ نشأتها سنة ١٨٩٢، وهو واضع نظامها الأساسى، وقبل وفاته أصدر لصالحها حجة وقف خيرى بكافة أملاكه.

انه حيث ابتليت مصر بالاستعمار البريطانى عقب هزيمة القائد الوطنى احمد عرابى فى معركة التل الكبير سنة ١٨٨٢، كان رد الفعل الوطنى أن نشأت فى آن واحد حركتان:

إحداهما: اجتماعية علنية، تنشد الإصلاح الاجتماعى من خلال النهوض بالشعب المصرى مادياً وصحياً واجتماعياً، إيماناً منها بأنه لولا ضياع وتخلف الشعب ما تمكن منه المستعمر. وكان على رأس هذه الحركة شخصيات مصرية تاريخية مثل الشيخ محمد عبده، وطلعت حرب، وقاسم أمين.

وأخراهما: حركة سياسية متخفية، تستهدف مقاومة الاستعمار البريطانى والجهاد من أجل تحقيق الاستقلال الوطنى. وكان على رأس هذه الحركة شخصيات مصرية تاريخية مثل مصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول.

ولم يجد بعض المؤسسين فى الحركتين سالفتى الذكر حرجاً فى العمل فيهما معاً مثل سعد زغلول، واحمد لطفى السيد، ممن جمعتهم الجمعية الخيرية الإسلامية منذ نشأتها فى أكتوبر سنة ١٨٩٢ مع عدلى باشا يكن، وعبد الخالق باشا ثروت، بالرغم من اختلافهم الأيديولوجى. بل إنه حين كلف وقتئذ سعد أفندى زغلول بإعداد لائحة الجمعية، حرص على النص فيها بحظر مناقشة المسائل السياسية أو الجدل فى الموضوعات الدينية.

كذلك حرص سعد زغلول على النص فى مشروع اللائحة التى قدمها لمجلس إدارة الجمعية المنعقد فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٩٢ بأن الاشتراك السنوى لعضوية الجمعية جنيهان. وهو ما يمثل وقتئذ تبرعاً حقيقياً من العضو، وليس مجرد اشتراك عادي، وذلك متى لاحظنا أن قيمة الفدان حسبما اشترته الجمعية فى ذلك الحين كان يتراوح ما بين ٢٠ و ٢٥ جنيهاً. والعجيب أن الاشتراك السنوى ظل كذلك جنيهان لقرن كامل، حيث لم يتقرر رفع رسم اشتراك العضوية إلا حديثاً اعتباراً من سنة١٩٩٥م.

لقد كان سعد زغلول من أنشط أعضاء مجلس إدارة الجمعية، حتى أننا نقرأ فى ثانى اجتماع مجلس الإدارة فى ديسمبر سنة ١٨٩٢، تكليف كل من سعد أفندى زغلول، وقاسم أفندى أمين، بالتوجه إلى أحياء عابدين والسيدة وبولاق، لتحرى أحوال الفقراء والمحتاجين بها، وإعداد تقارير بشأنهم لصرف المساعدات اللازمة لهم.

كذلك نرى الزعيم سعد زغلول قبل وفاته، يصدر بكل أملاكه، حجة وقف خيرى لصالح الجمعية الخيرية الإسلامية، موثقة بتاريخ ٢١ فبراير سنة ١٩٢٦ بمحكمة مصر الابتدائية الشرعية برئاسة فى ذلك الوقت فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم. وقد شملت هذه الحجة ثلاثة أعيان.

أولها: كامل أرض وبناء منزله بالقاهرة والمسمى الآن ببيت الأمة بشارع سعد زغلول بالسيدة زينب.

ثانيها: كامل أرض وبناء قصره بناحية إبيانة التابعة لمركز فوه بمديرية الغربية.

ثالثها: كامل الأطيان الزراعية التى يملكها، وهى عبارة عن ٤٠ ف أربعين فدان و٤ط وأربعة قراريط و١٠ س وعشرة أسهم بزمام مركز زفتى بمدرية الغربية.

وقد تسألون عن مصير هذا الوقف الخيرى، والتى حرصت على ارفاق صورتها بكتاب ندوة الوقف التى عقدتها الجمعية منذ سنتين فى ٢١ فبراير سنة ٢٠٠٠، فأقول أنها شأن سائر الأوقاف الخيرية التى بموجب القوانين المعدلة لقانون الوقف والصادرة فى عهد الرئيس جمال عبدالناصر، تضع الهيئة العامة للأوقاف يدها عليها، وما زالت منظورة أمام لجنة القسمة بوزارة الأوقاف برقم ٢٧١ لسنة ١٩٥٨ ورقم ٢ لسنة ١٩٧٢م.

تلك كلمة سريعة عن علاقة الزعيم سعد زغلول بالجمعية الخيرية الإسلامية، والتى لم تقتصر على عضوية مجلس إدارتها منذ نشأتها سنة ١٨٩٢، بل هو واضع لائحتها الأساسية، وهو الناشط دائماً فى تحقيق رسالتها الخيرية، ثم هو أخيراً الواقف قبل وفاته بكل أملاكه لصالح الجمعية الخيرية الإسلامية.

وختاماً مرحباً بضيوفنا المحاضرين الذين تفضلوا مشكورين بتلبية دعوة الجمعية الخيرية الإسلامية للاحتفال بأحد روادها العظماء الزعيم / سعد باشا زغلول .

وإنه بحكم نظام هذه الاحتفالية سيعرض كل محاضر بحثه ملخصاً فى عشر دقائق، ويعقبه بتقديم بحثه فيما لا يقل عن عشرة صفحات ولا يتجاوز عشرين صفحة، وذلك باعتبار أن المعول عليه هو إصدار بحوث هذه الاحتفالية فى كتاب مستقل، بحيث يكون مرجعا أساسيا فى موضوعه.

وفقنا الله جميعا لكل خير وسداد، ونبدأ بكلمة الأخ الفاضل:

١-الأستاذ / لمعى المطيعى بعنوان (سعد زغلول / رجل من مصر).

٢- الأستاذ المستشار / طارق البشرى، بعنوان (سعد زغلول وفكره السياسى).

٣- الأستاذ / جمال بدوى بعنوان (سعد زغلول الثورى الأمين).

٤- الأستاذة / إقبال بركة بعنوان (سعد زغلول والحركة النسائية الوطنية).

٥- الأستاذ / أبو صالح الألفى بعنوان (سعد زغلول والتعليم والتربية الوطنية).

٦- الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة بعنوان (سعد زغلول ابن الأزهر).

حجه وقف خيرى سعد باشا زغلول سنه ١٩٢٦ عن :

(١) كامل ارض وبناء منزله بالقاهرة بشارع سعد زغلول – قسم السيدة زينب .

(٢) كامل ارض وبناء قصره بناحيه إبيانه التابعه لمركز فوه بمديرية الغربية .

(٣) كامل الاطيان التى هى ١٠س و ٤ط و ٤٠ف اربعين فدانـا واربعة قراريط وعشره اسهم بزمام مركز زفتى بمديرية الغربية

وهذه الاعيان الموقوفة تضع يدها عليها الهيئه العامة للأوقـــاف دون الجمعية – ومسارها دعوى فرز وتجنيـــب لجنـــة القســـمة بوزارة العدل رقم

[illegible]

اولا : [illegible]

ثانيا : [illegible]

ما مر ولبه جوى مع الخط السابق يكون زاوية قائمة بطول ٦٠ متر ستة وثمانية عشر سنتيمتر ثم ينكسر يمينا ويصنع مع الخط السابق زاوية مقدارها ٦٠ درجة حتى تسونه درجة بطول ١٩ متر تسعة عشر ثم ينكسر يمينا بطول ٦ متر ستة امتار ويصنع مع الخط السابق زاوية منفرجة ثم ينكسر الى الشمال قبلي ويصنع مع الخط السابق زاوية منفرجة جدا بطول ١١ متر واحد عشر متر ثم ينكسر يمينا بطول ١٧ متر سبعة عشر متر ويصنع مع الخط السابق زاوية قائمة جملة مسطح المنزل المذكور ... متر ... وثمانون متر ... وحصة ... وخمسون جزء ... [illegible] ... ١٠ ... عاشر ... ذكر بالصيغة السابق ذكرها بالصيغة ... ارض المنزل ... [illegible] ... المزال ... المذكور.

ثانيا: ٨ ... [illegible] ... قيراط وشيئ ... [illegible] ... ناحية ... وصيفا
[illegible] ... الجزيرة ... بالقطعة ... بالقطعة ... الجزيرة ... قسم اول
... بالقطعة ... بالقطعة ... [illegible] ... الثانية ... ش ...
بالارض المذكورة ... قسم ٤ ... ١٦ ... بالقطعة ... ٨ ... بالقطعة ... بالقطعة ... ١٦،١٩
بالقطعة ... [illegible] ... بالكشف الرسمية الصادرة ... بتاريخ ... ١٩٥٢ ... المذكور ...
... الامام ... [illegible] ... ادارة ... [illegible] ...
[illegible] ... المذكورة السابقة ... صاحب ... [illegible] ... ما شرعا ... الارض ... [illegible] ...
وكما ... المنزل ... [illegible] ... بالكشف ... بتاريخ ... ١٩٥٢ ... [illegible] ...
... [illegible] ... كشف ... السابقة ... سنة ١٩٥٠ ... [illegible] ... المنزل ... ناحية
... السابق ذكره ... بطلب الانتقال ... عليه ... دولة ... شرعا ... وانشا دولته ... [illegible] ...
... [illegible] ... واسكان ... [illegible] ...
... احياء ... [illegible] ... انتقال دولة ... [illegible] ... المنزل
[illegible] ... المرحوم ... [illegible] ... الانتقال
دولته ... [illegible] ... المنزل ... [illegible] ... المذكورة ... [illegible] ...
... [illegible] ... من جميع الوجوه ... وشروطها واما المنزل الثاني الذي بناحية ابيانه ...

... [illegible] ... دولة ... [illegible] ... المرحوم الشيخ ابراهيم ...
المرحوم عبد الرحمن ... [illegible] ... الست مريم بنت اخيه المرحوم الشيخ ... [illegible] ... السيدة ... هانم ...
دولته ... المرحوم الشيخ ... [illegible] ... الفقراء منهم ... [illegible] ...
... [illegible] ... الطلبة ... [illegible] ...
... [illegible] ... الفقير الذي ... [illegible] ... ما يجب عليه نفقته شرعا
... [illegible] ... المنزل الثاني الذي ... السيدة ... هانم المذكورة مدة حياتها ثم من بعدها ...
المذكور ... [illegible] ... اولادهم ... [illegible] ...
منهم ... [illegible] ... الطبقة ... [illegible] ...
بحيث يحجب ... [illegible] ... منهم ... [illegible] ...
... [illegible] ... السيدة ... هانم المذكورة ... [illegible] ... ولده ... ولده ... [illegible] ...
... [illegible] ... الطبقة ... [illegible] ... الوقف ... [illegible] ...

بنات لم يكن فيه أحد من هذا الوقف ولا من ذريتها إلا انقراضهم كل طبقة في ذلك الأصل الموقوف عليهم فإن لم يكن له ولد ولا ولد ولد ولا [illegible] منه [illegible]
هذا المستحق كأن لم يكن في هذا الوقف الموقوف عليهم [illegible] الموقوف عليهم [illegible] إخوته [illegible] [illegible]
من حظه ونصيبه في جميع الأوقات [illegible] انقراضهم جميعه فإذا انقرضوا جميعا كان [illegible] المذكور [illegible] الوقف [illegible]
من الفاضل المذكور ويكون حكمه حكم [illegible] وشرط [illegible] من جميع الوجوه [illegible] الباقية من الفاضل المذكور [illegible]
امرأة [illegible] المذكورة [illegible] ثم لأولادهم ثم لأولاد أولادهم ثم لأولاد أولاد أولادهم وذريتهم
ونسلهم وعقبهم ذكورا وإناثا [illegible] في سائر طبقاتهم طبقة بعد طبقة [illegible] الترتيب المشروح [illegible]
[illegible] المذكور [illegible] فإذا انقرضوا [illegible] المذكورة [illegible] السابق بيانه [illegible] حكمه وشرط

[illegible] المذكور [illegible] من جميع الوجوه وإذا انقرض جميع [illegible]
[illegible] المذكورة [illegible] الجمعية الخيرية الإسلامية [illegible]
[illegible] في تعليم الفقراء [illegible] الفقراء [illegible]
[illegible] الفقراء [illegible]
[illegible] هذا الوقف [illegible]
جميع [illegible] من جميع [illegible] الموقوفة [illegible]
في ذلك جميع [illegible] يكون النظر على هذا الوقف جميعه [illegible] الواقف [illegible]
مدة حياته ثم من بعده يكون النظر [illegible] المذكورة مدة حياتها ثم من
بعدها يكون النظر عليه [illegible] الموقوفة المذكورة ما دام ناظرا عليه ويكون النظر [illegible]
[illegible] المذكورة [illegible] مدة حياته [illegible]
ثم من بعده يكون النظر [illegible] مدة حياته ثم من بعده يكون النظر
[illegible] هذا الوقف [illegible] المستحقين
[illegible] المستحقين [illegible] في الوقف المذكور [illegible]
[illegible] الوقف المذكور [illegible] المستحقين [illegible] يكون النظر
عليه ويكون النظر عليه [illegible] المستحقين [illegible]
[illegible] النظر [illegible] المستحقين [illegible]
[illegible] الوقف المذكور [illegible] الجمعية الخيرية الإسلامية المذكورة يكون النظر عليه
[illegible] للفقراء [illegible] يكون النظر عليه [illegible]
في من يكون [illegible] الوقف المذكور [illegible] الواقف [illegible]
هذا [illegible]
[illegible] هذا الوقف [illegible] النظر عليه [illegible]



سعد زغلول/ رجل من مصر

كلمة الأستاذ/ لمعى المطيعى

وكيل وزارة الثقافة الأسبق

وصاحب موسوعة (هذا الرجل من مصر)



الأستاذ المستشار الدكتور / محمد شوقى الفنجرى رئيس الجمعية الخيرية الإسلامية الزملاء الأساتذة الكرام المحاضرين .. المستشار / طارق البشرى، الأستاذ / جمال بدوى، الأستاذ / أبو صالح الألفى، الأساتذة /إقبال بركة، والدكتور/ محمد عمارة.



يسعدنى ويشرفنى أن أسهم فى نشاط الموسم الثقافى لهذا الصرح الدينى والوطنى والاجتماعى والثقافى (الجمعية الخيرية الإسلامية) والذى ندعو له بالتوفيق الدائم فى أنشطته المختلفة التى أرسى قواعدها فى الخير والتعليم والصحة.

وقد اقتربت من أحد أنشطة هذه الجمعية والتى تعمل بالروح التى أرست قواعدها الجمعية الخيرية الإسلامية. وأعنى بها (مستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية بالعجوزة) منذ سنوات تعرضت أبنتى "براد المطيعى" والتى تعمل حالياً فى الفترة الثقافية بالبرنامج العام – إذاعة جمهورية مصر العربية، تعرضت لحادث سيارة وكنت فى عملى ولم يكن معها أحد من الأسرة وتم نقلها إلى

المستشفى وهو قريب من السكن. لقيت الرعاية الكافية والطيبة بكل الألفة والأخوة، ودخلت مرة لزيارتها فرأيت أمام غرفتها حشد لم أعتد عليه. كان فى زيارتها "الأب بطرس جيد" شفيق قداسة البابا شنودة الثالث ويحتفى به مدير المستشفى ويرحب به أطباء المستشفى وممرضون وممرضات مما أثلج صدر الزائر رجل الدين. هذه هى مصر التى أنبتت سعد زغلول "والذى كان عضواً بمجلس إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية منذ نشأتها سنة ١٨٩٢ ووضع نظامها الأساسى.

روح (الأخوة الوطنية) التى تعمل بها مؤسسات الجمعية ليست إلا إمتداداً لرجال مصر من نوعية "الزعيم سعد زغلول"، وهو القدوة للروح التى عملت بها المجموعة التى أسست هذه الجمعية.

وأعود إلى مذكرات "الحاج أحمد شفيق" فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٢ اجتمعت الجمعية العمومية لإنشاء جمعية خيرية إسلامية تحت رعاية الحضرة الفخيمة، وتألفت لجنة لبحث مشروع القانون من سعد زغلول بك والشيخ محمد عبده، وحسن عاصم بك، وقاسم أمين بك، وأدريس راغب، ومصطفى المليجى بك، وعلى فخرى بك، وأحمد شفيق باشا، وتم إعداد المشروع فى يوم ٥ ديسمبر ١٨٩٢. وقد عرف تاريخياً "الشيخ محمد عبده وسعد

زغلول وقاسم أمين بالحس الوطنى والتدين السمح والحرص على الأخوة الوطنية.

وهذا عنصر أساسى عند رجل من مصر .. وهو "سعد زغلول" خادم الشعب والحارس على وحدته بهداية صحيح الدين.

تمضى الأيام – مساء الجمعة ١٢ اكتوبر ١٩٠٦، وفى دار سعد زغلول بك، تشكلت لجنة تحضيرية للجامعة المصرية من حضرات :

"سعد زغلول، وقاسم أمين، وحسن سعيد، ومصطفى كامل الغمراوى، ومحمد بك عثمان أباظة، ومحمد بك راسم، وحسن باشا السعدنى، وأخنوخ أفندى فانوس، وزكريا نامق، ومحمود بك الشيشينى. وتقرر تسمية هذه الجامعة بالجامعة المصرية على ألا تختص بجنس أو دين، بل أن تكون لجميع سكان مصر على إختلاف جنسياتهم وأديانهم فتكون واسطة للألفة بينهم.

وكرومر لم يكن يريد لمصر هذه الجامعة، وأشار بتعيينه ناظراً للمعارف ليبعده عن الاشتغال بهذه الجامعة.

سعد واللغة العربية :

نبوية موسى [١] إحدى رائدات التعليم فى مصر قالت فى كتابها (تاريخى بقلمى)، كان "الزعيم سعد زغلول "ناظراً للمعارف،

---

[١] ولدت نبوية موسى فى ١٨٨٦/١٢/١٧ بكفر الحكما ببندر الزقازيق، وحصلت على البكالوريا عام ١٩٠٧، ورحلت إلى رحاب الله فى بداية الخمسينات).

وكانت "نبوية موسى" قد حصلت على دبلوم المعلمات من المدرسة السنية، ورفضت ناظرة المدرسة السنية تعيين نبوية موسى بمدرسة السنية، فعينت معلمة بمدرسة عباس الأميرية للبنات. وكان "سعد زغلول" وهو ناظر المعارف [1] يهتم باللغة العربية، ويحرص على إحلال المصريين فى المدارس محل الإنجليز. المهم أن "نبوية موسى" كانت تكتب سلسلة مقالات عن التعليم وسياسته وسبل تطويره ووضع المرأة المصرية المعلمة ووضع الفتيات كطالبات وتلميذات، وذلك في مجلة كانت تصدر وقت ذلك باسم (مصر الفتاة).

وذهبت إحدى المفتشات على "نبوية موسى"، إلى " سعد باشا" ناظر المعارف، وقدمت إليه شكوى أرفقت بها مقالة من مقالات "نبوية موسى". ولكنه سر سروراً كثيراً لرصانة اللغة واستقامة الأسلوب، وكانت سعادته بالغة بأن تكون لديه فى نظارة المعارف معلمة تملك هذا الاهتمام باللغة العربية. وذهب "سعد باشا" إلى رئيس النظار وأطلعه على المقالات وأبدى إعجابه بالأسلوب واللغة، وبالمصادفة كان رئيس النظار يعتزم أن يطلب من "سعد باشا" باعتباره ناظراً للمعارف أن يقترح عليه أحداً ليقوم بتدريس اللغة العربية لبناته. وتم الاتفاق على أن تكون "نبوية موسى" هى

---

(١) شغل سعد زغلول منصب ناظر المعارف فى ١٩٠٦/١٠/٢٨ إلى ١٩٠٨/١١/١١، ثم من ١٩٠٨/١١/١٢ إلى ١٩١٠/١١/٢١م.

المدرسة. وكما قدمها "سعد باشا" إلى رئيس النظـــاره قدمـــها إلـــى "محمد محمود" الذى كان مديراً للفيوم ومهتماً بالتعليم فـــى الإقليـــم وأنشأ (المدرسة المحمدية للبنات بالفيوم) وعين لها ناظرة إنجليزيـــة لم تستمر فى العمل بالمدرسة. وأستأنس "محمد محمود" برأى "ســعد زغلول" فى أمر ناظرة للمدرسة، ورشح له سعد باشا "نبوية موسى" المصرية الجادة فى سلوكها والبارعة فى اللغـــة العربيـــة، لتكـــون ناظرة للمدرسة فى مكان الناظرة الإنجليزية التى تركت العمل.

وطلب "محمد محمود" نبوية موسى، لمقابلتـــه فـــى منزلـــه بشارع الفلكى. وذهبا سوياً إلى الفيوم، حيث تم التعاقد بيـــن نبويـــة موسى ناظرة للمدرسة المحمدية للبنـــات وبيـــن رئيـــس مجلـــس المديرية.

هذا نموذج لجدية ونزاهة وعدل وسعة أفق رجل من مصـــر "سعد زغلول"، كان اهتمامه الأول وهو نـــاظر للمعـــارف باللغـــة العربية والاهتمام بانتقاء عناصر تهتم أيضاً باللغة العربية. لم يـــهتم بالشكاوى الكيدية التى قدمت من إحدى المعلمات، وأعجب بها لأنـــها تجيد اللغة العربية وساندها وقدمها لصديقه "محمد محمـــود" وكـــان وقت ذاك مديراً لإقليم الفيوم.

سعد زغلول ... الزعامة والزعيم :

هؤلاء الرجال من مصر ... وسعد زغلول زعيـــم مصـــر، وزعيم هؤلاء الرجال جميعاً دون منازع. أدخـــل فـــى الموضـــوع

مباشرة لأنني أتحدث عن "سعد العظيم ...والمساحة المتاحة محدودة..

أبدأ بمذكرات "حسن يوسف" الذى عمل مع "فاروق" من سنة ١٩٣٥ إلى أن أصبح وكيلاً للديوان الملكى ورئيساً له بالنيابة على فترات، وكان كاتم سر مجلس البلاط، وحامل أختام الملك. قال حامل أختام الملك فى صفحة ٦٠ من مذكراته(يجمع الكتاب والمؤرخون على أن محاولة الحكم فى مصر ترتكز على ثلاث قوى : الوفد والقصر والإنجليز . ويمكن القول إجمالاً إن الفترة التى سبقت دستور ١٩٢٣ كان الحكم فيها للقصر بمساندة الإنجليز، وبعد صدور الدستور وتحديد اختصاص كل من السلطتين التنفيذية والتشريعية تناوب القصر والوفد سلطة الحكم، وفى سنة ١٩٢٤ كان الحكم فيها للوفد) .

وعلى صفحة ٧٧(ذهب سعد باشا بعد ظهر ذلك اليوم – يقصد ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٤ – لمقابلة الملك – ودامت المقابلة ساعتين علت من خلالها أصوات المتجمهرين "جنود سعد" وهم يهتفون تحت نوافذ القصر " سعد أو الثورة") .

وعلى صفحة ٨٢(عمد الملك بعد ذلك فوراً إلى تكوين جبهة مناهضة للوفد، فقرب إلى القصر عدلى يكن باشا وعبدالخالق ثروت باشا وإسماعيل صدقى باشا، كما تقرب إلى الحزب الوطنى برياسة حافظ رمضان باشا. وأنشأ القصر من خلال حسن نشأت

باشا رئيس الديوان الملكى بالنيابة، حزب الاتحاد فى ينـاير سـنة ١٩٢٥. وبذلك أصبح الملك وحزب الأحرار الدستوريين، والحـزب الوطنى، وحزب الاتحاد، فى جبهة معارضة للوفد ولسعد باشا)

وملحوظة سريعة من عندنا إن "على ماهر" كـان وكيـلاً لحزب الاتحاد والرئيس الفعلى له .. وبذلك تكون الجبهة المعاديـة للوفد تضم أيضاً عدلى يكن وعبدالخالق ثروت وإسـماعيل صدقـى وعلى ماهر، وهذا يوضح الثقل الوطنى والشعبى الذى كان يتمتـع به سعد العظيم.

ويستطرد صاحب المذكرات على الصفحة ذاتـها ..(وقـد أحدثت وفاة سعد زغلول فى أغسطس ١٩٢٧ فراغاً شـعبياً هـائلاً انتهزه الملك فؤاد ليزيد من نفوذ القصر، إذ أن شخصية سعد كـانت القوة الوحيدة التى تستطيع الوقوف أمام أوتوقراطية الملك)

وأعتقد أن كلام "حامل أختام الملك فاروق" ليس فى حاجـة إلى توضيح أو إلى تعقيب من جانبنا، وليس فى حاجة إلى اعتراض من جانب غيرنا.

ونأتى إلى "إسماعيل صدقى" أول من خـرج علـى سـعد زغلول، ومؤسس حزب الشعب ، والذى حل البرلمان الوفدى أكـثر من مرة والذى تمت فى عهده محاولة اغتيال مصطفى النحاس فـى المنصورة.. والذى... والذى . ويقول فى مذكراتـه عـن سـعد زغلول ((كان سعد زعيما وطنياً بكل ما تؤديه هـذه الكلمـة مـن

معان، ولو أن كلمة زعيم لا تمنع، أنه كان سياسياً قديـــراً وقـــائداً ماهراً فى أوقات الشدائد ورباناً بارعاً صارع الأنـــواء والأمـــواج وواجه الأخطار فلم تؤثر فى عزيمته ولم تزعزع من جبروت نفســه وإرادته. وكان يخرج بسفينته قوياً منتصراً جباراً، وكانت شـــجاعته وبلاغته وسعة إطلاعه وكثرة تجاريه مما هيأ لــــه، التـــأثير بيـــن الجماهير فاشتد حبها له وإعجابها به، وانقيادها لكل ما يبديـــه مـــن رأى وإصغاؤها لكل ما يهتف به مـــن قـــول .. فـــامتلك الأفئـــدة والنفوس وبقى طوال حياته الزعيم الأكبر)).

وأعتقد أن كلام "إسماعيل صدقى" ليس فـــى حاجـــة إلـــى توضيح أو إلى تعقيب من جانبنا، وليس فى حاجة إلى إنكـــار مـــن جانب غيرنا.

القرية والأزهر :

من الظواهر التى تلفت نظر الباحثين أن القرية المصريـــة أنجبت لمصر عدداً من زعمائها المرموقين، بعـــد أن استودعتهم الأزهر الشريف، يقدم لهم الأصالة ثم يقدمهم بدوره قادة لمصر فـــى الأنشطة المختلفة.. من هؤلاء الذيـــن ولدتـــهم القريـــة المصريـــة وتأسست بنيتهم الثقافية فى الأزهر كان "سعد زغلول".

والتاريخ الشائع لميلاد "سعد زغلـــول" هـــو عـــام ١٨٥٩م ويرجح "الدكتور / عبدالعظيم رمضان" أنه ولد فى شهر ذى الحجـــة

١٢٧٤هـ الذى يوافق يوليو ١٨٥٩م، وهو التاريخ الذى صرح به سعدزغلول بنفسه لسكرتيره محمد إبراهيم الجزيرى.

ومهما كان من أمر، فقد أنبتته ونمته قرية مصرية هى (قرية إبيانة) مركز فوه التى كانت تابعة لمديرة الغربية. أبوه "الشيخ إبراهيم زغلول" رئيس مشيخة القرية، ووالدة سعد هى مريم بنت الشيخ عبده بركات أحد كبار الملاك، وأنجب منها بنتاً واحدة هى (ستهم) ثم سعد الذى عرف بسعد زغلول، وفتحى الذى عرف بأحمد فتحى زغلول، ومات الشيخ إبراهيم زغلول وسعد عمره خمس سنوات فكفلته أمه وخاله "عبدالله بركات" والد "فتح الله بركات".

ثم جاء دور "الكتاب" يتعلم منه سعد القراءة والكتابة ويحفظ القرآن الكريم، ووفد "سعد" إلى القاهرة سنة ١٨٨٣م، والتحق بالأزهر وفى ذلك العام رحل رفاعة الطهطاوى.

وكان قد وفد إلى مصر الثائر (السيد جمال الدين الأفغانى) سنة ١٨٧١. وفى تقديرى أن تلك النشأة الأصلية هى التى حددت السمات التى تميز بها "سعد زغلول" فيما بعد والتى سجلها "محمد كامل سليم" قال :(سعد رجل الشعب، والاستقلال لمصر .. وثقافته عربية دينية إسلامية، تعلم الفرنسية على كبر وأتقنها كلاماً، وكتابة، وعرف الحضارة الغربية بكثرة إطلاعه وقراءاته وكثرة أسفاره إلى الخارج. وهو رجل أخلاق ومبادئ مطبوع على الصراحة

والشجاعة والثقة بالنفس والصدق والأمانة .. رجل عاطفى مشبوب العواطف يحب بكل قلبه مع العطف والحنان، ويكره مع السخط والاحتقار، ويغضب فى عنف على كل منحرف عن الصدق، والفضيلة والاستقامة)

سعد والشيخ والسيد :

من الصعب أن تقارن بين تأثير الشيخ محمد عبده، وتأثير السيد جمال الدين الأفغانى على سعد زغلول.. ولعل تأثير "السيد" على سعد زغلول هو الذى حدا بالزميل الكاتب الأستاذ جمال بدوى أن يطلق على مقالة له فى هذا الشأن عنوان "سعد زغلول الأفغانى" على كل حال فإن "الشيخ محمد عبده" وفد إلى الأزهر فى منتصف شوال من سنة ١٢٨٢ هجرية (١٨٦٦ ميلادية) وهو فى هذا سابق على مجئ سعد زغلول بسبع سنوات الذى جاء إلى الأزهر سنة ١٨٧٣م. وكان السيد جمال الدين الأفغانى قد جاء إلى مصر فى أواخر سنة ١٢٨٦ هجرية (مارس ١٨٧١ ميلادية)، وقد صاحبه "الشيخ محمد عبده" ابتداء من شهر المحرم سنة ١٢٨٧ هجرية وأخذ يتلقى عنه بعض العلوم الكلامية والفلسفية.

وصحب "الشيخ محمد عبده" تلميذه وصديقه إلى حلقة الأفغانى، وكان "الشيخ محمد عبده" يكبر "سعد زغلول" بعشر سنوات وسابقاً عليه فى تلقى العلم بالأزهر بسبع سنوات، وسابقاً

عليه أيضاً فى الاتصال "بالسيد جمال الدين" الذى جلس إليه مريدون كثيرون "محمد عبده، سعد زغلول، عبدالله النديم، محمود سامى البارودى، إبراهيم المويلحى، وإبراهيم اللقانى، وعلى ظهر، وحفنى ناصف، وعبدالسلام المويلحى، وعبدالكريم سليمان، وأديب اسحق، وسليم النقاش، وسعيد البستانى، والسيد وفاء التونى، ومحمد صالح، وسلطان محمد".

وفى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ كانت قوة بأمر "الخديو توفيق" تقبض على "جمال الدين الأفغانى" وعلى خادمه " أبو تراب". وأودعا باخرة عند السويس سارت بهما إلى بومباى، وكان هذا اليوم آخر العهد بالسيد فى مصر...ولكنه كان قد ألقى بذور الثورة فى تربة مهيأة لها.

فكانت تظاهرة عابدين بقيادة عرابى فى ٩ سبتمبر ١٨٨١.. وكتب سعد زغلول فى (الوقائع المصرية) يؤيد الثورة.. وقام بدور هام فى نقل أخبار الوطنيين إلى عرابى فى الجبهة، ونقل أراء "الشيخ محمد عبده" وقرارات الوطنيين إلى العرابيين فى جبهة القتال . وبعد هزيمة الثورة فصل من وظيفته ففتح مكتباً للمحاماة. وظلت سلطات الاحتلال والخديوى تطارده فقبض عليه فى ٢٠ يونيو ١٨٨٣ بتهمة الاشتراك فى جمعية سرية.

١٣ نوفمبر ولماذا سعد ؟

لسنا بصدد الحديث عن وقائع هذا اليوم التـــاريخى وإنمـــا نعرض هنا لسؤال هام هو ...لماذا سعد ؟

للرجل تاريخ يعود إلى سنة ١٨٧٣ وهو العام الذى التقـــى فيه بالسيد جمال الدين الأفغانى، وتاريخ يعود إلى مصاحبته للشـــيخ محمد عبده، وتاريخ يعود إلى مشاركته الجدية فى إحـــداث الثـــورة العرابية وإلى الفصل من الوظيفة وإلى السجن بسبب هذا النشاط.

ثم يواصل المسيرة إلى جانب الشعب، ففـــى ١٨ نوفمـــبر ١٩٠٦ أختير سعد ناظراً للمعارف فينحاز تماما إلى حق الشعب فى التعليم، وإلى تعيين الوطنيين فى وظـــائف المعـــارف، والتصـــدى لدانلوب والمستشارين الإنجليز، وفى ٢٣ فبراير ١٩١٠ نقل نـــاظراً للحقانية فكان مثالاً للعدالة والوطنية المصرية.

وعندما كان وكيلاً للجمعية التشريعية كان معارضاً بـــارزاً للسياسة الإنجليزية.

وقبيل إعلان الهدنة دعا" سعد" إلى عزبته بمسجد وصيـــف "عبدالعزيز فهمى" وأحمد لطفى السيد " و"محمد محمود " ، وتحدثـــوا فيما ينبغى عمله بعد إعلان الهدنة. وفى ١١ نوفمبر ١٩١٨ أعلنـــت الهدنة، وكان هناك اجتماع فى بيت سعد تقرر فيه توجيـــه الدعـــوة إلى اجتماع موسع وكتب صيغة الدعوة "أحمد لطفى الســـيد"، وفـــى هذا الاجتماع الموسع تقرر أن يذهب "سعد زغلول" وكيل الجمعيـــة

التشريعية، و"عبدالعزيز فهمى، وعلى شعراوى" عضوا الجمعية التشريعية إلى المعتمد البريطانى فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨م.

ليس دفاعاً عن الثورة :

وهكذا إذا وصلنا إلى يوم الثورة فى ٩ مارس ١٩١٩ التى اشتعلت غداة القبض على "سعد زغلول" وزملائه .. وراء سعد ما يقرب من نصف قرن من الارتباط بالحركة الوطنية المصرية، ومن المواقف الشجاعة إلى جانب مصالح الشعب، ومن التنظيم والإعداد ليوم الجهاد ولما بعد هذا، **ولم تأته القيادة مصادفة ولا هو ركب موجة ولا يحزنون.**

والحديث عن الثورة القومية الكبرى عميق ومتشعب .. فهى أول ثورة يقوم بها شعب ضد الاحتلال بعد الحرب العالمية الأولى، وأعادت ثقة الشعب المصرى إلى نفسه، بعد أن هزمت الثورة العرابية. هذه الثورة لم يقم بها حزب واحد من الأحزاب التى عرف فى مصر قبل الحرب العالمية الأولى (الحزب الوطنى، حزب الأمة، حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية، حزب النبلاء، الحزب المصرى، الحزب الدستورى، الحزب الجمهورى، الحزب الاشتراكى المبارك..) وإنما قامت بها جبهة عريضة واسعة أذهلت السياسيين داخل مصر وخارجها، هذا الجبهة عرفت تاريخياً باسم "الوفد" وهذه واحدة من ميزات الثورة الكبرى.

وكانت الحركة الوطنية موزعة الاتجاهات والأساليب .. مرة الأمل فى الدولة العثمانية، وأخرى فى الخديوى، وثالثة فى فرنسا، ورابعة فى التسليم بواقع الاحتلال والسعى إلى الإصلاح .. **ولكن الثورة رفعت شعار مصر للمصريين وجددت أمل المصريين فى الثورة كأسلوب للتغيير.**

ويرى باحثون آخرون أن أهم إنجازات ثورة ١٩١٩ هى وحدة المسلمين والأقباط، فقد أصبحت مصر تكاد تكون الدولة العربية الوحيدة التى لا تمزقها العصبيات والنعرات القومية والدينية. ويكفى أن شعار الثورة (الدين لله والوطن للجميع)، لم نزل نعود إليه إذ ما نزلت بالوطن فتنة أو شبه فتنة طائفية.

الوزارة الشعبية :

بقيت مصر من ٩ فبراير - ١٥ مارس ١٩٢٣ بدون وزارة، وجاءت وزارة "يحيى إبراهيم" من ١٥ مارس - ٢٧ يناير ١٩٢٤ على أساس أن تفرج إنجلترا عن "سعد زغلول" وعن أعضاء الوفد المعتقلين فى سيشل. وتم الإفراج عن المعتقلين داخل مصر وصدر الدستور فى ١٩ إبريل ١٩٢٣. واجرى يحيى إبراهيم انتخابات برلمانية سليمة فى ١٢ يناير ١٩٢٤ حاز فيها مرشحو سعد على ١٩٥ مقعداً من مجموع المقاعد (٢٢٤). وتقدم يحيى إبراهيم بالاستقالة فى ٢٧ يناير ١٩٢٤ ليشكل "سعد باشا" فى "٢٨

يناير – ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤" الوزارة الشعبية الأولى التى أدهشت الكثيرين.

يقول الدكتور محمد حسين هيكل فى مذكراته (فى اليوم الذى تألفت الوزارة فيه، فتح كثيرون عيونهم واسعة من شدة الدهشة. لقد ألف الناس من عشرات السنين، وفى عهد الإنجليز أنفسهم، أن يكون فى الوزارة قبطي واحد. أما سعد فقد أخذ فى وزارته اثنين من الأقباط. وقد ألف الناس أن يكون الوزراء ممن لهم مكانة ملحوظة فى الحكومة أو خارج الحكومة، فأشرك سعد فى وزارته رجالاً لم يعرف لهم أحد ماضياً يقام له وزن حيث أشرك نجيب الغرابلى بطنطا، وأشرك غيره فأدهش ذلك أهل مصر وكان مثاراً لدهشة البلاد العربية الأخرى).

وإذا كان هذا الاتجاه إلى وضع أبناء الشعب فى مقاعد الوزراء، قد أدهش الكثير فى مصر والبلاد العربية، فإن ما قدمه نواب الشعب فى الدور الأولى لأول مجلس نواب ينتخب انتخاباً حراً على أساس دستور سنة ١٩٢٣ كان بمثابة قرارات سياسية واجتماعية واقتصادية تؤكد اتجاه السلطة الوطنية الجديدة.. قرر نواب الشعب فيما قرروا : تنظيم استهلاك الدين، وفصل العملة المصرية عن العملة البريطانية، وسحب الاحتياطى من بنك انجلترا، وحذف الاعتماد المخصص لنفقات جيش الاحتلال، وحذف رسوم الجمارك بين مصر والسودان على مهمات وذخائر الجيش

المصرى، وتنشيط الجمعيات التعاونية واعتماد إضافى لوزارة المعارف لإنشاء المدارس، ومشروع إصلاح الأراضى البور، وبيع أطيان الحكومة لصغار المزارعين واختيار مندوبين مصريين يمثلون الحكومة لدى الشركات الأجنبية بدلا من الأجانب، وجعل الانتخاب على درجة واحدة لمجلس النواب والشيوخ، بعد أن كان على درجتين للنواب، وثلاث للشيوخ.

وإزاء الثورة القومية الكبرى، الثورة الشعبية الحقيقية من حيث القوى والقيادة والأهداف والتنظيم، وإزاء أول برلمان بعد انتخابات حرة يتخذ مثل القرارات السابقة، وإزاء الوزارة الشعبية الأولى برئاسة زعيم الأمة، وإزاء الوفد الوكيل الشرعى للأمة كان من الطبيعى أن تتحالف القوى المعادية للشعب المصرى لإجهاض ثورة ١٩١٩، ووضع العراقيل أمام مسيرتها .. تحالف الإنجليز، والملك فؤاد، والزعامات غير الشعبية وغير الديمقراطية أمثال إسماعيل صدقى، وعلى ماهر، ومحمد محمود، وأحزاب القصر والأقلية السياسية كالأحرار الدستوريين والحزب الوطنى، وحزب الاتحاد. وبعد أول طلقة لاغتيال (السير ستاك) اضطر سعد باشا إلى الاستقالة، وجاء "محمد أحمد زيور" ليعطى الجمل بما حمل للإنجليز والملك.

لماذا الهجوم ؟

ليس من الغريب أذن أن يكون الهجوم الشرس على سعد زغلول أو سياسة سعد زغلول أثناء حياته وطوال ستين عاماً حتى اليوم بعد رحيله فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ لماذا؟ كان سعد يمثل ضمير الأمة فى مفاوضاته مع الإنجليز. وكان غيره يريد أن يعمل إلي ما يمكن أن يسمح به هؤلاء الإنجليز.. وحين لجأ سعد إلى الجماهير فى ٢٥ إبريل ١٩٢١ يفسر لها تمسكه برئاسة وفد المفاوضات قال : (إذا طلبنا الرئاسة فإنما نطلبها ليكون الرئيس حراً مرتكزاً على قوة هى قوة الأمة، لا أن يكون مرتكزاً على قوة من الحكومة الإنجليزية.. وألا ففى هذه الحالة يكون جورج الخامس يفاوض جورج الخامس).

سعد استرد من الملك فؤاد السلطات التى اغتصبها فمن الطبيعى أن يحاربه القصر وكل سياسى يريد أن تعود السلطات للملك. كان زعيماً يمزج كفاحه بين الجماهير، زعيماً شعبياً حقاً يستند إلى الشعب وليس إلى سلطة الاحتلال أو القصر. حاربوه بالانقسام ومحاولة الاغتيال وبكل محاولات إجهاض الثورة القومية الكبرى، حاربوه وما زالوا يحاربون ميراثه الديمقراطى. وعندما كان رئيساً لمجلس النواب وأراد أن يتحدث ونزل عن كرسى الرياسة وناداه وكيل المجلس "ويصا واصف" الكلمة الآن لنائب السيدة زينب "سعد زغلول"، ضج المجلس الموقر بالتصفيق.

معذرة أبا الزعماء ..فالعين بصـــيرة والمســاحة المتاحــة قصيرة.. ويكفى أن أردد مقالة الشاعر اللبنانى بشارة الخورى عنــد رحيلك.

قالوا : دهمتمصر دهـاء فقلت لهم

هل غيض النيل أم هل زلزل الهرم؟

قالوا : أشد وأدهى قلت ويحكم ماذا إذن؟

قالــوا مات سعـــد وانطــوى العلم

المراجع :

١–أحمد شفيق باشا – "مذكراتى فى نصف قرن".

٢– إسماعيل صدقى باشا – مذكرات.

٣– جمال بدوى – "مشاهد حية من تاريخ مصر".

٤– حسن يوسف – مذكرات.

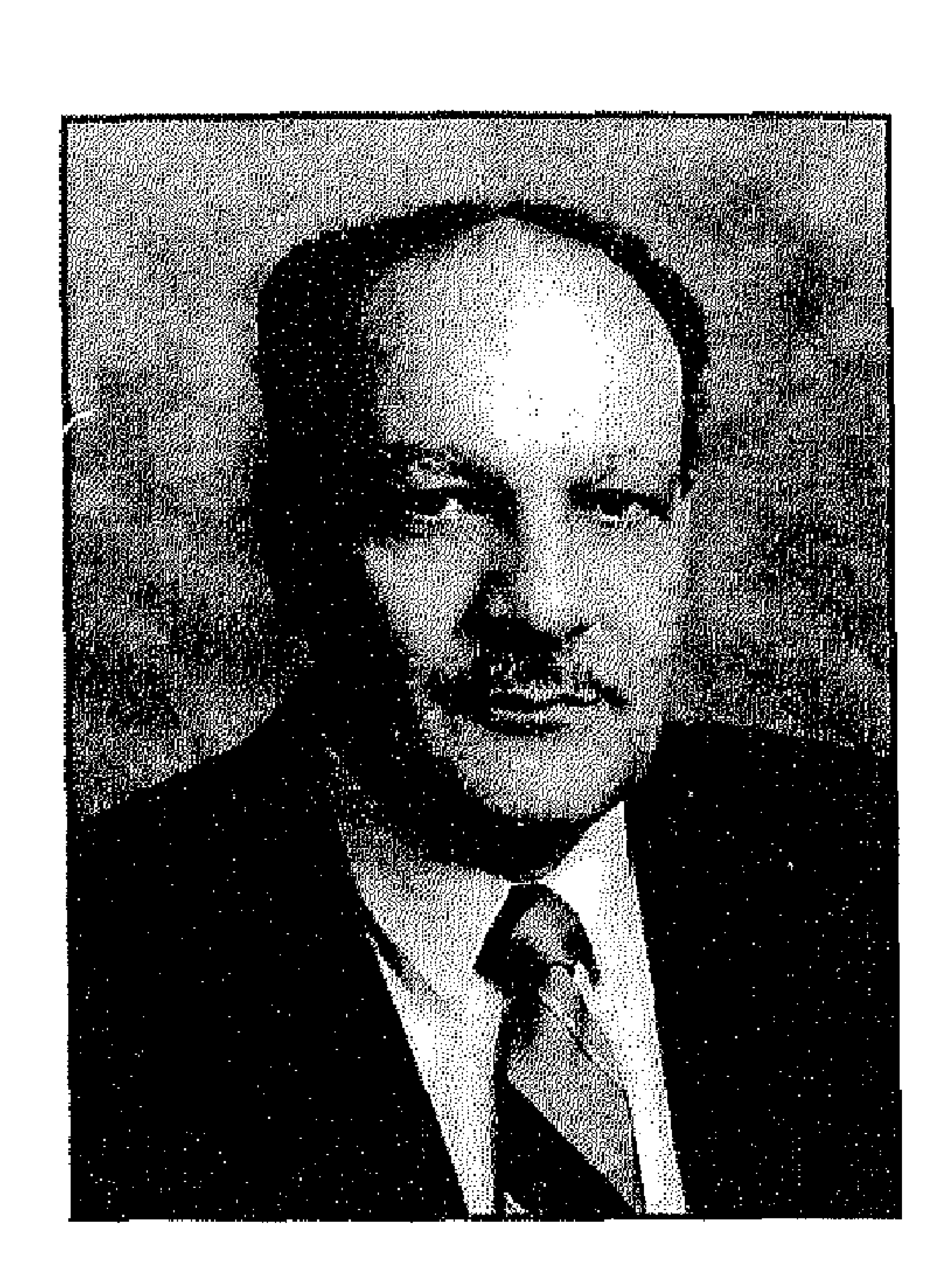
٥– عباس محمود العقاد "سعد زغلول".

٦–محمد كامل سليم – سعد وعدلى.



سعد زغلول وفكره السياسى

كلمة الأستاذ المستشار/ طارق البشرى
نائب أول رئيس مجلس الدولة (سابقاً)
والكاتب والمؤرخ المعروف



يمكن إجمال أثر ثورة ١٩١٩ فى السلطة السياسية فى مصر، فى إنها نجحت فى تحقيق ما كان قد دعا إليه لطفى السيد وصحيفة " الجريدة " وحزب الأمة قبل الثورة بما يشارف ربع قرن، **وهو أن تكون الأمة قوة ثالثة مؤثرة وفاعلة بين السلطتين الشرعية والفعلية، فثورة ١٩١٩ لم تسقط السلطة الشرعية (الخديوى أو السلطان أو الملك) ولا أجلت السلطة الفعلية (عساكر الإنجليز أو المعتمد البريطانى أو المندوب السامى)، لكنها أوجدت قوة ثالثة بجوار هاتين القوتين.**

وهناك يأتى دور سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩، الذى بدأ الخطوات الأولى للمطالبة باستقلال مصر فى نوفمبر ١٩١٨ بوصفه كبيراً لفريق حزب الأمة يلتقون على جدارته وصدارته بينهم، ولكنه ما لبث كثيراً حتى طور مطالبه ومواقفه مدركاً لحقائق الإمكانيات الوطنية المصرية المتاحة، ومدركاً لمدى القوى الشعبية

التى تفتقت عنها الجماعة السياسية المصرية بشباب مدنها وقراهـا وشيوخها وبتليدها وطريفها معاً.

أولا كانت قوة "الأمة" فى وعـى المطـالبين بمشـاركتها السلطتين الشرعية والفعلية قبل ثورة ١٩١٩، كـانت هـى الأسـر الكبيرة وكبار الملاك والأغنياء وغالبهم من باشوات مصر وعمدهـا فى الريف.

ثانيا كان طلب هؤلاء المشاركة مـع القوتيـن الشـرعية والفعلية، وأن تنضم قوة ثالثة إلى قوتين قائمتين تشاركهما الحكومـة واتخاذ القرار.

وهنا يظهر دور سعد زغلول، ذلك أنه لم يقد الثورة فقـط لإيجاد هذه القوة الثالثة قوة الأمة- بين القوتيـن السياسـيتين القائمتين : الشرعية والفعلية ، وإنما استجاب بكفـاءة وشـرف لإمكانات الثورة الشعبية المصرية، وليعدل مفهوم "الأمـة" علـى يديه وليعدل بالتالى هدف مشاركة "الأمة" للسلطتين الأخريين .. وهذا هو الدور الشخصى لهذه الزعامة الفريدة.

فأولا لم تعد قوة "الأمة" فى الأسر الكبيرة ووجهاء القـوم، إنما صارت قوة الجماعة المصرية فى عمومها بشبابها وجلابيبـها وأفنديتها من المتعلمين خريجى المدارس وبالصغـار مـن فئـات الطبقات المتوسطة فى الريف المصرى والحضر والأحياء الشـعبية

وغيرها. واستبدل بالنظرة الضيقة للسراة والوجهاء نظرة أعم وأشمل، لأن المسألة ليست مسألة تتعلق بهذه الجماعة العليا المحدودة، إنما هى مسألة استقلال الوطن مما يشمل عموم الجماعة الوطنية السياسية على النطاق المصرى. صارت هذه الجماعة بحجمها الشامل هى "الأمة" ممثلة فى تنظيم الوفد المصرى.

وثانياً: لم يعد مطلب "الأمة" هو مشاركة السلطتين الشرعية والفعلية بوصفها قوة ثالثة شريكه،وإنما صارت أمة حركية مشاغبة، تقوم إزاء السلطتين الأخريين كعنصر إقلاق وإضجار. فهى تنافس السلطة الشرعية الممثلة فى الملك، تنافسها فى شرعية الوجود ولتنقص تدريجياً من نفوذها وسطوتها. وهى كذلك "أمة" تجهر بأن طلبها هو السعى الدائب والحثيث لإنهاء السلطة الفعلية الممثلة فى الاحتلال البريطانى لمصر.

كان هذا هو ما امتد إليه بصر سعد زغلول وبصيرته، وما أدركه من مغزى قومه المصريين فى ١٩١٩. **إن ما حدث منذ ٩ مارس ١٩١٩ لم يكن مجرد مطالب لجماعة عليا مصرية تطالب بمكان لها فى تقريرات السياسة المصرية، ولكنها قومة الجماعة السياسية الوطنية لتحقيق إنجازها الوطنى بإجلاء الإنجليز أصلاً، وإنجازها الديمقراطى بإحالة الملك إلى رمز يتجرد ملكه من قدرات السيادة والإمرة والتقرير.**

سعد والجماعة الوطنية

كان سعد زغلول قادراً على اتخاذ القـــرارات المصيريـــة، لأنه كان ذا رؤية سياسية وتاريخية عميقة. وذلك لأنه كان ذا ثقافـــة سياسية محيطة، فهو من هذا النوع الذى يصلح لأن يقود جماعتــــه السياسية فى المنعطفات والثنيات الكبرى، فلا يغشى الغبار بصيرتـه ولا تجعله المنحنيات يغفل عن التوجهات الأساسية. وقليــــل ممــن حكموا مصر فى عصرها الحديث كان لديهم هذه القدرة، أزعم أنـــها كانت موجودة لدى محمد على وعبد الناصر، وأكاد أتردد فى القـول بوجودها لدى أحمد عرابى.

وسعد أهله تاريخه كله لهذه الصلاحية، كان أزهريـــا ثـــم تعلم الحقوق والفرنسية. وكان ريفياً ثم صار حضارياً مـــن أهـل أحياء الميسورين فى القاهرة،وكان فى جمعية الانتقـــام الســـاعية لأعمال العنف، ثم آل إلى صالون نازلى هانم فاضل حيـــث يلتقـــى وجهاء المجتمع مصريين وأجانب، وصاحب الأفغانى ومحمد عبـــده ثم صاحب كرومر. وصاهر مصطفى باشا فهمى رئيـــس الـــوزراء فى عهد كرومر، وكان كاتباً فى الوقائع المصرية ثم صار مستشـــاراً ووزيراً ووكيلاً للجمعية التشريعية، فـــهو شـــخصية مركبـــة وذات تضاريس وعرة بما يراكم خبرات بالغة التنـــوع وفـــهم لجماعـــات المصريين جميعاً.

لاحظ عباس محمود العقاد فى كتابه عن سعد زغلول، أن سعد كان يحتفظ بصورة لكل من الأفغاني ومحمد عبده وكرومر، واستدل من ذلك على ما يتصف به سعد من صبغة "نظامية"، فهو رجل دولة. ثم ينتقل العقاد ليشير إلى أنه رأى فى مكتبة سعد كتاباً عن باكونين أحد رءوس الدعوة الفوضوية فى أوربا فى القرن التاسع عشر ممن ينادون بإلغاء الدولة، ويصيح العقاد أين سعد من هذه الأودية السحيقة؟

على هذه المساحة الواسعة من التصنيفات السياسية والاجتماعية لجماعات المصريين ومن التنويعات الفكرية، كان سعد ينظر ويطالع ويتحرك، لذلك استطاع أن يقود "أمة" أو جماعة سياسية بتكويناتها جميعاً، وأن يلتقط الجامع بينها والقاسم المشترك لفئاتها، وأن **يعبر ليس فقط عن عموم هذه الجماعة السياسية ولكن أن ينقل الجماعة السياسية من خصوص إدراك كل فئة منها بذاتها إلى عموم إدراكها بما يجمعها وبما تنشده فى هذه المرحلة التاريخية القائمة.**

ونقل الحركة الوطنية من ضيق مصالح السراى والميسورين إلى سعة الجماعة المصرية، وهو بالنسبة لعلمانية الوطنية لم يتخذ موقفاً فكرياً تغريبياً قحا بمثل ما كان يدعو مفكرو حزب الأمة القديم ولطفى السيد ومثقفو هذا الفريق، ولم يقلد كمال أتاتورك فى تركيا وقتها.

إنما استخلص موقفاً علمانيا وسطياً: "لا أتاتوركيا" لا يجعل هدفه مخاصمة الإسلام ومعاندته وقصر علمانيته على الخروج من إطار المرجعية الإسلامية لا تحطيمها، وذلك كله أن صح لدى التعبير. وهو كان وقتها فى الستين من عمره، فاستطاع أن يجاوز حدود جيله وأن ينتقل إلى جيل الأربعينيات، يتجاوز أمثال عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى وغيرهما ممن بدأ معهم أولاً، وينتقل إلى أمثال مصطفى النحاس وغيره من هذا الجيل الوسيط.

سعد والحكومة

لما قابل سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى، المعتمد البريطانى فى ١٣نوفمبر سنة ١٩١٨، ليسمح لهم بالسفر إلى باريس لعرض طلب مصر استقلالها عن البريطانيين على مؤتمر فرساى للسلام، رد عليهم المعتمد البريطانى بأنهم ليسوا الحكومة ولا يمثلون الشعب المصرى.

لم يكن هؤلاء القادة بعيدين عن هذا الهاجس، بل أنهم اختاروا أنفسهم وعلى رأسهم سعد الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية والعضوان الآخران عن أعضاء الجمعية. فلهم سمت الدولة أو أحد أجهزتها، وكانوا على اتصال ما بحسين رشدى رئيس الوزراء، ولكن لما حدث التشكيك فى صفاتهم بدأوا حركة شعبية سميت حركة التوكيلات، فأعدوا وثيقة يوقعها الناس أفراداً يوكلون

فيها عدداً من الأعضاء هم من كونوا "الوفد المصرى" وذلك للسعى بكل الوسائل السلمية المشروعة، حيثما وجدوا للسعى سبيلاً لتحقيق استقلال مصر استقلالاً تاماً، واندفع الناس يوقعون هذه الصيغة ويجمعونها.

كانت حركة عجيبة وغير مسبوقة فيما أخال. وفى دراستى لثورة ١٩١٩ وقفت عندها طويلاً، والتوكيل الفردى على هذا النحو مقبول ومعقول أن جرى فى الشئون الخاصة، بيعاً أو قرضاً أو حضوراً أمام محكمة، ولكن أن أوكل شخصاً معيناً بالاسم فى المطالبة باستقلال بلدى من المحتل الأجنبى فهذا أمر طريف. حملت الأمر أولاً على أنه تصرف غلبت به الحرفة القانونية على قادة سياسيين كان أغلبهم من رجال القانون والمحاماة والقضاء.

ولكننى لم ألبث أن أدركت أن هؤلاء القوم قاموا بعمل سياسى فح بطريقة غاية فى الحنكة والبراعة. انهم باسم التوكيلات توجهوا لجماهير الشعب المكونة للجماعة السياسية المصرية لعمل لا يؤدى إلا بالانتخابات العامة أو الاستفتاءات العامة، **والطريف أن هذا الإجراء عادة تحتكر الدولة وظيفة الدعوة إليه وتنظيمه، فهو من مظاهر سيادة الدولة ووظائفها.. ولكن هؤلاء القادة الأذكياء لجأوا لهذه الحيلة القانونية المسماة بالتوكيلات لكى يدعوا الشعب المصرى لاستفتاء عام على قيادتهم له،** رغم كونهم مواطنين

فحسب لا يتولون منصباً رسمياً فى الدولة، وتولت لجانهم الأهلية تنظيم هذا الاستفتاء وإنجازه.

وجرى ذلك دون اصطدام بأجهزة الدولة. فلما فطنت السلطة البريطانية إلى هذا الأمر وضغطت على رئيس الوزراء لوقف هذه الحركة التى من شأن تمامها إيجاد بديل شرعى للدولة القائمة، ولما بدأت أجهزة الإدارة تعوق حركة التوكيلات، لم يشأ سعد زغلول أن يصطدم بها. إنما اكتفى بما اجتمع من التوكيلات وأرسل إلى رئيس الوزراء كتاباً يسجل فيه ما يجرى من عرقلة، وكان ذلك بعد أن لم يعد أحد يستطيع أن يسأله من أنت وما صفتك.

ونشأ بهذا تنظيم هو "الوفد المصرى" ليس حزباً ولم يقبل قط من بعد أن يسمى نفسه حزباً، إنما هو "وفد" أى ممثل للجماعة الوطنية المصرية. وكل ذلك جرى عبر تحريك شعبى وتعبئة سياسية وتوعية فكرية، حشدت ما يشبه الإجماع الشعبى، مما أمكن به تحييد جهاز الإدارة المصرى فى العديد من الحالات، حتى أن اللورد اللنبى الذى عين معتمداً بريطانياً صاح فى ربيع ١٩١٩: لقد صارت الحكومة مستحيلة، إذ أضرب الموظفون كلهم بغير سابقة ولا لاحقة لذلك.

سعد وأصحابه هؤلاء الذين تحدوا سلطة الدولة وزاحموا بعض وظائفهم، وهم جمهور من الجمهور فى ١٩١٩، و١٩٢٣، تحدياً ومزاحمة جرياً بنجاح بغير اصطدامهم أنفسهم.بعد أن تولوا

الحكم فى ربيع ١٩٢٤، أدركوا أنه من الخطأ والغباء توهم أنهم قبضوا على أعنة السلطة السياسية لمجرد أن دانت لهم الوزارة، وإن صار لهم بمجلس النواب أكثر من ٩٠% من أعضائه، وعرفوا أنهم فى الوزارة ومجلس النواب إنما يمارسون "المعارضة السياسية" من خطوط ممارسة متقدمة، أما أعنة السلطة فهى فى هذا الموقف المتقدم لم تزل بعيدة عن أصابعهم المشرئبة. وقد كان يمكن إقالتهم وحل مجلس النواب، كما أنه لم يكن يتيسر لهم إنفاذ كل ما يبتغون.

ومن فرط ذكاء سعد وخبرته أنه توقع كل ذلك بعد نجاحه الساحق فى الانتخابات وتردد فى قبول الوزارة أسابيع، ثم قبلها وبقيت وزارته من مارس إلى نوفمبر ١٩٢٤ فقط. ذلك أن السلطة ليست مجرد اكتساح انتخابى وقوة شعبية كبيرة، إنما هى أيضاً تعتمد على القوة الاقتصادية والقوة العسكرية وموقع من الهرمية الشرعية فى المجتمع وقوة جمع المعلومات واشاعتها. وقد تذكرت هذا الدرس جيداً وأنا أراقب تجربة نجم الدين أربكان فى حكم تركيا، ولعله بلغ من الذكاء ما ذكرنى بسعد زغلول من قبل سبعين سنة.

سعد والاستقلال

لم يكن بد أمام المصريين فى طلبهم الاستقلال وإجلاء الإنجليز عن مصر، إلا أن يلجأوا للطرق السلمية المشروعة،

فالعنف كطريق أساسى لإخراج جيش احتلال لم يكن متيسراً من حيث الإمكانية البشرية والسياسية وأوضاع الدولة والمجتمع. **فقام الأمر على أساس التحريك شبه الشامل للجماعة السياسية فى عمومها، مع أسلوب المقاومة السلبية بعدم التعاون مع قوات الاحتلال وأنصارهم، ثم اللجوء لضبط الإيقاع بقدر من أعمال الشغب أو العنف مقصود بها بيان إمكان اللجوء إلى العنف إن لجأ إليه الطرف الآخر.** ولكن مع كل ذلك تظل المفاوضات هى طريق كسب الاستقلال وإجلاء المحتل وإزاحة سيطرته وضغوطه على الإدارة السياسية فى البلاد.

وفى المفاوضة وجه مساومة، والمساومة تحتاج لفحص لإمكانات التدرج فى الأخذ والإعطاء، وذلك لترتيب البدائل. ولا تقوم مشكلة كبيرة بالنسبة لمن يعتمد فى المساومة على قوة مادية، لأن القوة المادية فى الغالب تقبل التجزئة وتحتمل التقسيم، لذلك فإن المحتل الأجنبى يستطيع أن يتدرج فى الإعطاء والأخذ، لأن قوته مادية يمكنه أن يقبل التدرج فى عدد قواته المحتلة من حيث العدد ونوع العتاد، ويمكنه أن يتدرج فى المساحات التى يحتلها من حيث الإقليم والمناطق سعة وضيقاً أو يكتفى بعدد من القواعد العسكرية برية أو بحرية أو جوية.. ويمكنه أن يتدرج فى حالات العودة بعد الجلاء فى ظرف حرب أو خطر حرب أو أزمات.. ويمكنه أن يتدرج فى عدد سنوات بقاء أى من هذه الممكنات. لذلك فمطلبه

مرن وإمكاناته التى يحقق بها مطلبه مرنة كذلك، لأنه يستطيع أن يتدرج فى استخدام وسائل القمع للحركة الشعبية المصرية.

أما البلد الخاضع للاحتلال، فمطلبه معنوى فى الأساس وإمكاناته التى يحرك بها مطالبه معنوية أيضاً فى الأساس، وكان من ذلك فى الغالب لا يقبل التجزئة ولا يرد عليه التقسيم. والسؤال ماذا كان يمكن للمفاوض المصرى أن يقدمه للإنجليز وما الذى كان يطلبه الإنجليز، لقد قالها كيرزون الوزير البريطانى المفاوض لسعد فى مفاوضات سنة ١٩٢٢، أن الإنجليز سيعطون المصريين كيت وكيت مقابل اعتراف مصر بالوجود البريطانى فيها، فليس لدى المصريين ما يعطونه إلا القبول أو التوقيع على معاهدة تعترف بشرعية الوجود البريطانى فى النطاق المتفق عليه. والتوقيع على المعاهدة أو القبول إما أن يتم وإما ألا يحدث أصلاً، هو واقعة واحدة تقع بتمامها أو لا تحدث أصلاً، ولا تحتمل تجزئة أو تقسيماً.

وإن وسيلة المصريين فى ضغطهم وأصل قوتهم التفاوضية آتية من وقوفهم صفاً واحداً وجمعاً لا ينفصم فى مواجهة القوة البريطانية، ومتى انقسموا ضاعت هذه القوة دون أن تحتمل تدرجاً فى الاستخدام.

وهذا بالدقة ما أدركه سعد وأصحابه من فئة المتشددين من شباب الوفد. فلما صدر التصريح البريطانى فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ يعترف من جانب واحد باستقلال مصر مع التحفظ بالنسبة لحماية

المواصلات البريطانية وحماية الأجانب والأقليات والسودان، رفض سعد التصريح وأسماه نكبة وطنية، وشرح موقفه فى بعض خطبه بأنه إن قبل التصريح يكون قد أعطى كل شئ ولم يحصل إلا على البعض أو على أمر منقوص بالتحفظات كمن يقول لبائع أشترى منك بألف إلا ألفاً. وسعد بعد ذلك عمل فى السياسة العملية على مراعاة تحفظات تصريح ٢٨ فبراير. ولكنه والوفد معه لم يعترف به قط حتى لا يكون قد أعطى كل شئ وأخذ ألفاً إلا ألفاً.

وقد ذكرت هذا الدرس عندما عرفنا باتفاق أوسلو بين الفلسطينيين وإسرائيل، أن الفلسطينيين بهذا الاتفاق "أعطوا كل شئ" وهو الأمر الوحيد الذى كان باقياً على ملكهم وهو الاعتراف بشرعية الوجود الإسرائيلى على أرضهم السليبة، وما يعطونه لم يكن يحتمل التجزئة ولا التدرج ولا التقسيط، وما أخذوه هو مجرد وعود مقسطة من قوة تملك التجزئة والتدرج، وأعطى الإسرائيليون البائع "ألفاً إلا ألفاً" كما سبق أن قال سعد رحمه الله.

حصيلة التجربة

كان الهدف الذى رسمته الجماعة السياسية فى مصر مع حركة ثورة ١٩١٩ هو ما أوردته الصيغة الواردة بالتوكيلات من "أن يسعوا بجميع الوسائل السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلاً لتحقيق استقلال مصر استقلالاً تاماً".

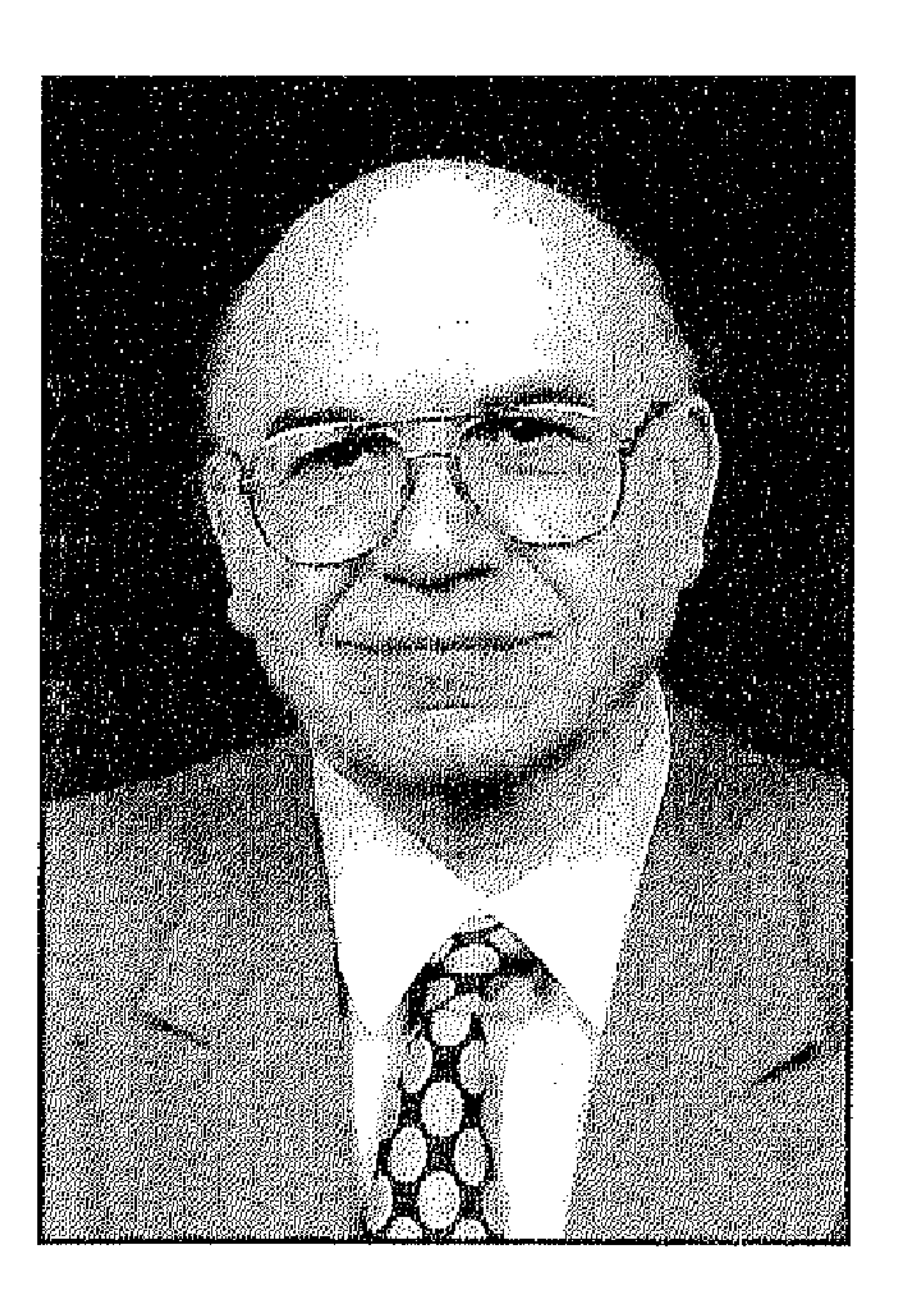
وعمقت حركة الثورة بزعامة سعد زغلول هذا الهدف وكفلت له قدراً معتبراً من التنفيذ والإبقاء مدة ثلاثين سنة، وكان من شروط وضع هذا الهدف موضع الجدية فى التنفيذ ما يلى:

- موقف شبه إجماعى تتمثل فيه الإدارة العامة للجماعة السياسية فى مصر بفئاتها وطوائفها وجماعاتها الفرعية جميعاً.
- هذا الموقف فى شموله من شأنه أن يحيط بجهاز الإدارة المصرى ويكفل حياده وقد يكفل قدراً من تعاطفه، وذلك بغير استفزاز ولا تحد له ولا اصطدام معه.
- التنبيه إلى ما لا يقبل التجزئة من مطالب الأمة وما لا يقبل التقسيم من عطائها للغير، وذلك عند سلوك سبيل المفاوضة.
- أمكن وقتها استخدام العنف بحذر وبقدر وكعنصر ضابط ورادع لعدم لجوء الطرف الآخر للعنف.



سعد : الثورى الأمين

كلمة الأستاذ/ جمال بدوى
رئيس تحرير جريدة الوفد سابقاً



امتزجت أكثر من مادة في تشكيل "عجينة" سعد زغلول، ويمكن تركيزها في ثلاثة عناصر : أولها النشأة الريفية في قرية في حضن الدلتا، وتشارف النيل. وتخرج الصبي من صلب أسرة فلاحية تنتمي إلى سائر الناس، لا هي بالارستقراطية المتعجرفة، ولا هي بالفقيرة المدقعة، وقد لاحظ "العقاد" تأثير البنية القروية في أسماء اخوته وأخواته: شلبي، والشناوي، وستهم،وفرحانة.. في وقت كان أثرياء المصريين يتفاخرون بإطلاق الأسماء التركية والشركسية على أولادهم.

والعنصر الثاني في شخصية سعد هو البيئة الدينية التي أحاطته منذ نشأته الأولى في البيت والكتاب ثم صحبته إلى الأزهر، وازدهرت على يد فيلسوف الإسلام ومصلح الشرق جمال الدين الأفغاني. وصار عضواً منتظماً في حلقته بقهوة "متاتيا" ينثر بذور الثورة بيمناه، ويوزع السعوط بيسراه، ويدعو تلاميذه ومريديه إلى الثورة على التخلف والجهل والاستبداد والطغيان. وفي هذه الحلقة يلتقي سعد بنماذج متمردة غير إسلامية من أمثال يعقوب صنوع وأديب اسحق، فتنفتح مداركه لأول مرة على أهمية الوحدة الوطنية

فى بلد يقوم على التعدد الدينى. وستظل هذه الفكرة كامنة فى حافظته حتى يحين أوان توليدها.

أما العنصر الثالث فى تشكيل شخصية سعد فهو نزعته الثورية من خلال صحبته لمحمد عبده، فلما فشلت ثورة عرابى فى تحقيق أهدافها، وانقلب عليها الخونة وعملاء القصر : أصاب سعد من البلاء ما أصاب غيره، وقدموه إلى التحقيق بتهمة الانتماء إلى (جمعية الانتقام) التى بثت الذعر فى نفوس ذيول الاحتلال.

فى مرحلة ما قبل الثورة : تفرغ سعد للدراسات القانونية وتعلم الفرنسية حتى حاز شهادة الحقوق وعمل بالمحاماة. واختلط بالعناصر الارستقراطية التى كانت تلتقى فى صالون الأميرة المتمردة "نازلى فاضل" ومنهم الإمام محمد عبده وقاسم أمين، وكان من ثمرات هذا الصالون وضع كتاب (تحرير المرأة) الذى صاغه الإمام فكراً، وقاسم أمين تحريراً، وفى هذا الصالون التقى "سعد" باللورد كرومر – حاكم مصر الفعلى – الذى أكتشف فى سعد ممثلاً للمصرية الصحيحة الناهضة فى مواجهة الهيمنة التركية، فاختاره وزيراً للمعارف فى حكومة مصطفى فهمى عام ١٩٠٦ حيث دار الصراع بين سعد ومستشار الوزارة الإنجليزى "دانلوب" من أجل الحفاظ على اللغة العربية باعتبارها اللغة الرسمية لأهل البلاد.

وكانت نهاية الحرب العظمى عام ١٩١٨ بداية المرحلة الثورية من حياة سعد زغلول، والتى برز من خلالها كزعيم للأمة المصرية بغير منازع، ومن خلال التوكيلات الشعبية كان على سعد أن يتحمل تبعات هذه الوكالة وفى طليعتها تحرير مصر من الاحتلال.

وهنا تبرز إشكالية تاريخية لا تزال مثار جدل، فالشائع أن سعد كان يدعو إلى الاستقلال بالطرق السلمية، ودون استخدام العنف ضد الإنجليز.. ومما ساعد على ترسيخ هذا المفهوم : نص الحوار الذى دار بين المعتمد البريطانى وبين الأقطاب الثلاثة : سعد وشعراوى وعبدالعزيز، عندما ذهبوا إليه يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ يطلبون الاذن بسفر الوفد المصرى إلى فرنسا لعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح، والحصول على الاستقلال بمقتضى مبدأ حق تقرير المصير الذى بشر به الرئيس الأمريكى "ويلسون". ولما سألهم المعتمد البريطانى عن وسيلتهم إلى نيل الاستقلال : قالوا.. الطرق السلمية. ومن هنا ظل هذا المفهوم سائداً فى أدبيات الحركة الوطنية، وكان خصوم سعد يتخذونه مطعناً للتشكيك فى ثورية سعد، وجنوحه إلى السلم فى مواجهة الاحتلال.

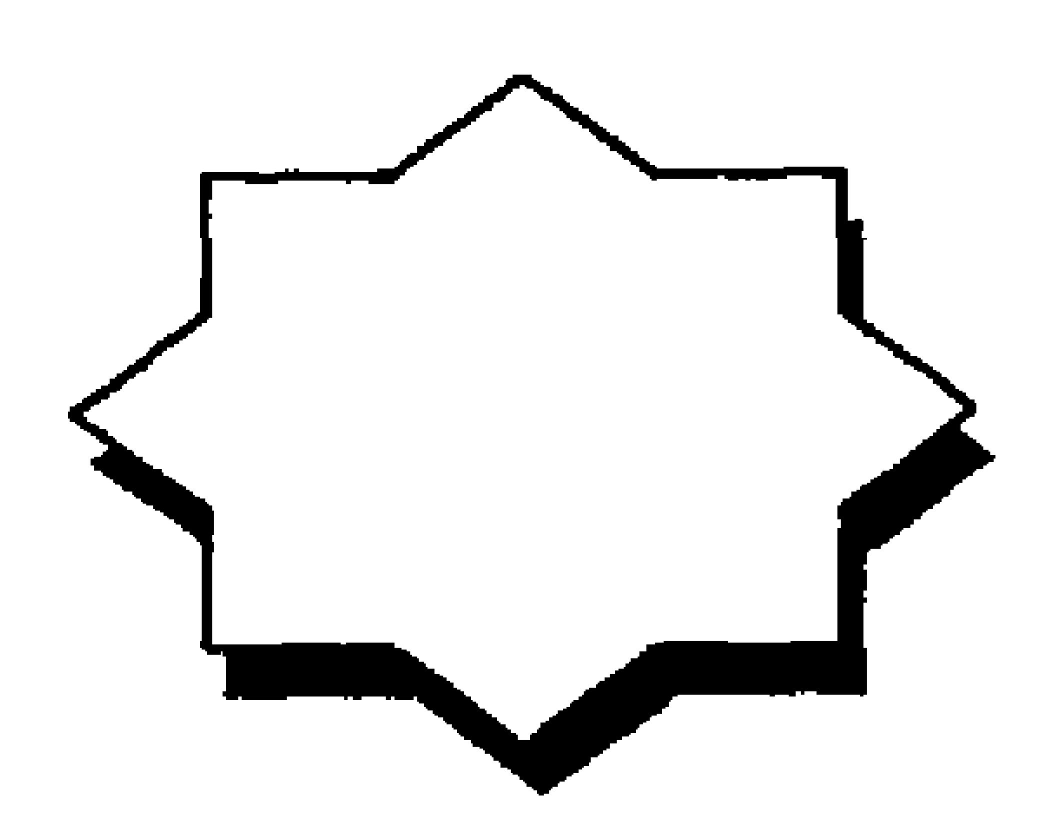
غير أن الملفات السرية لتنظيم الجهاز السرى لثورة ١٩١٩ بقيادة عبدالرحمن فهمى تكشف عن حقائق مذهلة غابت عن أذهان

خصوم سعد، أو بالأحرى تعمدوا إخفاءها، حتى ينزعوا عن سعد شرف المقاومة ضد جنود الاحتلال.

لقد تبين من خلال اعترافات شفيق منصور، المدير الأول لعملية اغتيال السردار، أن هذه العمليات الفدائية لم تكن لتحدث بعيداً عن عيون سعد زغلول. وكشف شفيق منصور عن وجود "**جهاز أعلى للاغتيالات**" يضم كلاً من أحمد ماهر، ومحمود فهمى النقراشى، وحسن كامل الشيشينى، وكلهم من أساطين الوفد المقربين من سعد، " وجهاز التنفيذ" وكان يتكون من محمود إسماعيل وأولاد عنايت. وكان شفيق حلقة الوصل بين الجهازين، فيتلقى التعليمات من الجهاز الأعلى ويبلغها للجهاز الأدنى المختص بالتنفيذ. وعن طريق هذا الجهاز تم اغتيال العديد من ضابط وجنود الاحتلال فى شوارع القاهرة، مما كان له الأثر الأكبر فى زعزعة الوجود الإنجليزى، وأدركوا أن بقاءهم فى مصر يكلفهم غالياً.

هذه الصفحة الخفية من تاريخ الكفاح الوطنى تكشف أن سعد لم يكن الزعيم المسالم الذى يناضل بالخطب والكلمات، وإنما كان زعيماً ثورياً يدرك أن الخطب لن تجدى مع هذا الاحتلال الذى أعلن فى كل مناسبة أنه لن يخرج من مصر حتى يشيب الغراب، ومن ثم أطلق العنان لهذا الشباب الناهض كى يتلقوا الاحتلال ويحولوا بينه وبين البقاء.

أن علينا أن نكشف عن هذه الصفحات المجهولة من تاريخ سعد، لكى يبدو لنا فى صورته الحقيقية المتكاملة : ثورياً لا يعرف المساومة أو المهادنة أو المداهنة. وهذا هو سر زعامته الأسطورية للأمة المصرية، فأسلمت اليه بناءها، ووثقت فى حكمته وتقديره للأمور واستأمنته على قضيتها فكان نعم الأمين.



سعد زغلول والحركة النسائية الوطنية

للأستـــاذة/ إقبـــال بركـــة

رئيس تحرير مجلة الحواء



تمهيد :

﴿ لا يمكن أن يتحـــرر شعب بينما نصفه مغلول إلى المطبـــخ"، عبـــارة أطلقـــها المفكـــر الألمـــانى كـــارل ماركس الذى صدر المجلـــد الرابع من كتابـــه الخطـــير "رأس المال" خلال الســنوات من ١٩٠٤-١٩١٠.



الأستاذة إقبال بركة

فى الوقت الذى انفجر فيه كفاح الشعب المصرى المريـــر لمقاومـــة وإنهاء الاحتلال البريطانى، وبعد انتهاء الحرب العالميـــة الأولـــى، وطوال المرحلة الأولى من النضال الشعبى لإنـــهاء الاحتـــلال لـــم تتوان المرأة المصرية عن بذل الروح والـــدم فـــى ســبيل وطنـــها الحبيب مصر. وقد تزامنت معركة تحرير مصر لترابها المقدس مع معركة انطلاق ابنتها المصرية من أسر الرق والحريـــم والجاهليـــة والعثمانية، حتى بدى كأن إحداهما لن تنتصر دون الأخرى.

كانت تلك هى الحلقة الثالثة فى نضـــال المـــرأة المصريـــة لكسر أغلالها والدفاع عن حرية وكرامة بلدها فى آن واحد. **بـــدأت الحلقة الأولى** فى بداية القرن التاسع عشر، بـــالدور الـــذى لعبتـــه النساء "الحرافيش" فى ثورات القاهرة أثناء الغزو الفرنسى لمصـــر، وخلده المؤرخ عبدالرحمن الجبرتى. **ثم جاءت الحلقة الثانية** بعـــد

ذلك بأقل من قرن، أثناء ثورة البطل المصرى أحمد عرابى عندما وقفت النساء المصريات من الطبقة الحاكمة معه، وناصرته، وعارضن الخديوى توفيق فى السر والعلن. **ثم جاءت الذروة أثناء ثورة ١٩١٩.**

فى عام ١٩٠١ م توفيت الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا العظمى التى حكمت بلادها منذ ١٨٣٧م، ونصبت نفسها امبراطورة على بريطانيا والهند منذ ١٨٧٧م. ومع وفاتها انتهت حقبة ثقافية وسياسية طويلة، وبدأ العالم عصراً جديداً يختلف كل الاختلاف عما سبقه. كان اقتحام المرأة لعالم السياسة أهم ملمح من ملامح التغيير الجذرى الذى سيحول العالم إلى كوكب مختلف. ففى عام ١٩٠٦م حصلت نساء فنلندا على حق الانتخاب، وفى عام ١٩٠٧م تبعتهن نساء النرويج، الأمر الذى حفز النساء الإنجليزيات على تصعيد نضالهن للحصول على حقوقهن السياسية، ووقعت أحداث ما سمى بيوم الجمعة الأسود عندما تظاهرت ٣٠٠ سيدة من جماعة النساء اللاتى أطلق عليهن لقب السفراجيتس (Sufragets) فى ١٨ نوفمبر ١٩١١م أمام البرلمان الإنجليزى فى لندن بزعامة إميلى بانكهيرست، وذلك للمطالبة بالحقوق السياسية للمرأة. اشتبك البوليس الإنجليزى مع المتظاهرات، فقتلت سيدتان، وأصيبت واعتقلت العشرات. وفى السجن أعلنت السيدات اضرابهن عن الطعام حتى الموت ما لم يمنحن حق الانتخاب والترشيح. وعلى الجانب الآخر من المحيط توالت الأحداث وأسست النساء

الأمريكيات عصبة النساء المنتخبات League of Women Voters التى أسفر نشاطها عن تعديل المادة ١٩ من الدستور الأمريكى ومنح النساء حق التصويت فى ١٨ أغسطس ١٩٢٠. وبعدها بعامين فقط تم انتخاب أول امرأة لعضوية الكونجرس الأمريكى "ريبيكا فلتون عن ولاية جورجيا".

أما فى مصر فقد كانت نبوية موسى أول فتاة تحصل على البكالوريا من منازلهم عام ١٩٠٧ (وقد ظلت لمدة ٢١ سنة الوحيدة)، وقد تنبهت الحكومة المصرية (البريطانية) إلى هذه الحالة فأصدرت قراراً عام ١٩٠٩ بتحريم أداء امتحان البكالوريا على الفتاة المصرية، قراراً آخر بتحريم حصولها على الابتدائية !! ولم تستسلم النساء المصريات بالطبع بل استمرت معارضتهن لتلك القرارات المتعسفة التى ترينا إلى أى مدى الغفلة عن حقوق المرأة المصرية والتعنت فى حرمانها من أبسط حقوقها المشروعة.

وفى هذا البحث أحاول أن أتتبع خطوط التأثير والتأثر بين الحركة النسائية وعلى رأسها المناضلة الوطنية هدى شعراوى، وبين سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩م.

نشأة سعد زغلول

أثناء الحرب العالمية الأولى تكشفت نوايا الإنجليز نحو مصر، وبات الشعب يترقب زعيماً جديداً يقود ثورة الغضب الصاعد ضد الاحتلال الإنجليزى ومناوئيه من رجال القصر

والسلطة، وجاء هذا الزعيم ...سعد زغلول الفلاح المصرى الأزهرى الصحفى المحامى القاضى الوزير النائب المفكر الخطيب الذى أهلته وطنيته الجارفة وشخصيته الحازمة التى لا تلين لأن يصبح زعيم ثورة ١٩١٩م بلا منازع.

وُلِدِ سعد إبراهيم زغلول فى شهر ذى الحجة ١٢٧٤هـ الموافق يوليو سنة ١٨٥٨ [1] فى قرية إبيانه بمركز فوه، الذى كان تابعاً وقتذاك لمديرية الغربية، فى أسرة ميسورة الحال تمتلك العقارات والأطيان، حيث كان أبوه إبراهيم زغلول عمدة القرية. وفى عام ١٨٧٣م التحق سعد بالأزهر، بعد أن حفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة فى كتاب القرية. وفى القاهرة التقى الشاب اليافع سعد زغلول بالمفكر الإسلامى جمال الدين الأفغانى، وأصبح واحداً من الذين التفوا حوله وتأثروا بفكره وشخصيته، وتتلمذ فى الأزهر على الشيخ محمد عبده الذى كان يكبره بعشرة سنوات، فنشأت بينهما علاقة وطيدة، علاقة التلميذ بالأستاذ، والأب بالابن، أثرت على لغة سعد زغلول وأسلوبه وأخلاقه، فأصبح خطيباً بارعاً ووطنياً إسلامياً، وظل يدين بالفضل لهذا الشيخ حتى أنه كان يراسله فى منفاه ببيروت، التى نفى إليها بعد فشل الثورة العرابية.

---

[1] مذكرات سعد زغلول الجزء الأول د. عبدالعظيم رمضان ١٩٨٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب صفحة ٤٨.

فى أوائل أكتوبر ١٨٨٠م أسند إلى الشيخ محمد عبده تحرير جريدة الوقائع المصرية، فطلب من تلميذه سعد أن يعاونه فى تحريرها، فما كان من سعد إلا أن ترك الأزهر قبل الحصول على شهادته وعين محرراً فى القسم الأدبى بالمجلة فى ٥ أكتوبر ١٨٨٠م. فكان محرراً نشيطاً ذكياً، يعتمد عليه فى القضايا القانونية، وقد ساعده هذا العمل على فهم مجريات الأمور والتعرف على خبايا الحياة السياسية فى مصر، كما أهله لأن يعين معاوناً بنظارة الداخلية فى مايو ١٨٨٢م. ومنذ ذلك التاريخ ترك الزى الأزهرى الذى كان يرتديه، وارتدى الزى العصرى الذى يناسب لقب أفندى الذى حصل عليه بوظيفته الجديدة. وفى ٦ أكتوبر ١٨٨٢م نقل سعد إلى وظيفة ناظر قلم الدعاوى بمديرية الجيزة، إلا أن الغزو البريطانى لمصر سرعان ما بدأ بضرب الإسكندرية، فما كان من سعد إلا أن لعب دوراً وطنياً فى التحريض على الجهاد والمقاومة والتصدى للخديوى الخائن توفيق، مما أدى إلى رفده من الوظيفة الجديدة بعد أقل من شهر. وقرر سعد أن يبتعد عن المناصب الحكومية، واستهوته مهنة المحاماة رغم أنها لم تكن محترمة أو ذات بريق فى ذلك الوقت. فافتتح مع زميل له مكتباً للدعاوى، إلا أن السلطة لم تكن قد أغفلت مراقبته، ومرة أخرى تم القبض عليه هو وزميله، فى ٢٠ يونيو ١٨٨٣ وحوكما بتهمة الاشتراك فى جمعية سرية "باسم الانتقام" التى شكلها بعض الوطنيين المصريين لمقاومة الاحتلال البريطانى. ورغم أن القضاة

لم يجدوا دليلاً على إدانة سعد وزميله وحكموا بالإفراج عنهما، إلا أن الحكومة رفضت تنفيذ الحكم وسعت إلى نفيهما وأبقتهما رهن الاعتقال لفترة حتى أفرج عنهما وزير الحقانية فى ذلك الوقت.

. عاد سعد إلى مهنة المحاماة ونجح فيها نجاحاً كبيراً حتى أنه حاول إصدار مجلة قضائية باسم "العدالة"، واختارته الأميرة نازلى فاضل أخت الخديوى إسماعيل، ليكون وكيلاً لأعمالها، وأصبح يتردد على صالونها الأدبى الشهير بصحبة أستاذه الإمام محمد عبده، وتعرف من خلاله على صفوة رجالات المجتمع من مصريين وأتراك وإنجليز، ومن بينهم المعتمد البريطانى اللورد كرومر. **وسرعان ما قفز قفزة كبيرة عندما عينه الخديوى الشاب عباس حلمى الثانى نائب قاض بمحكمة الاستئناف فى ٢٧ يونيه ١٨٩٢ بتوصية من أستاذه الشيخ محمد عبده. ورغم أن الحصول على مؤهل عال فى القانون لم يكن فى ذلك الوقت شرطاً للتعيين فى وظيفة قاض إلا أن سعد شرع فوراً فى تعلم اللغة الفرنسية، ثم التحق بجامعة باريس فى أوائل عام ١٨٩٦م، وحصل منها على ليسانس الحقوق فى يوليو ١٨٩٧م. فتحت شهرة سعد وشخصيته الفذة وثقافته واتصالاته الأبواب على مصاريعها لكى يتبوأ مكانة اجتماعية مرموقة، رشحته لأن يتزوج صفية بنت رئيس الوزراء مصطفى فهمى باشا فى ٦ فبراير ١٨٩٦.**

وظل سعد زغلول يعمل فى سلك القضاء ويرتقى فيه قرابة أربعة عشر عاماً حتى ٢٨ أكتوبر ١٩٠٦م، عندما عين وزيراً

للمعارف فى وزارة حميه مصطفى فهمى باشا، فجعل غايته التدرج فى تحويل التعليم إلى اللغة العربية بعد أن فرض الإنجليز لغتهم على المدارس المصرية فى كل المراحل وكل المواد بما فى ذلك اللغة العربية، وأنشأ مدرسة القضاء الشرعى وتصدى بحزم للمستشار الإنجليزى دنلوب الذى كان همه عرقلة التعليم فى مصر وتحويل المدارس إلى مفارخ تنتج موظفين فى خدمة السلطة الإنجليزية فقط. وأدت مصادمات سعد مع دنلوب إلى تركه الوزارة وعين ناظراً للحقانية، إلا أنه استقال من هذه الوزارة أيضاً فى ٣١ مارس ١٩١٢ احتجاجاً على تقديم الزعيم الوطنى محمد فريد للمحاكمة دون علمه، رغم أنه شخصياً كان من المعارضين لمصطفى كامل وسياسة الحزب الوطنى.

وفى أول انتخابات للجمعية التشريعية رشح سعد نفسه فى ثلاث دوائر ففاز فى دائرتين منها هما بولاق والسيدة زينب، واختار الأخيرة ليكون نائباً، وكانت تلك الخطوة التى أتاحت له أن يظهر شخصيته القوية وميوله الوطنية، ومن ثم بدأ نجمه يتوهج فى سماء السياسة الوطنية. وفى الجلسة الأولى للجمعية التشريعية انتخبه الأعضاء بالإجماع وكيلاً للمجلس (بينما عينت الحكومة عدلى يكن وكيلاً ثانياً). إلا أن الفرحة لم تتم، فقد تنبهت سلطة الاحتلال إلى خطورة تواجد سعد فى ذلك المنصب الشعبى الذى يتيح له إظهار معارضته لها بلا قيود، وتذرعت بنشوب الحرب العالمية وأصدرت فى ١٨ أكتوبر ١٩١٤ أمراً بتأجيل دورة

انعقاد الجمعية التشريعية إلى أول يناير ١٩١٥ م[١]، ولم يحدث هذا بالطبع بل توالى التأجيل بعد ذلك لمدة عشر سنوات.

كان سعد أثناء ذلك يعانى من المنصب ويمضى أغلب وقته فى عزبته ويكتب مذكراته التى يقول فيها : "ويل لقوم تولى الأجنبى أمورهم! إن الفضيلة تضيع فيهم، وتمرض قلوبهم، ولا ينبغ منهم أحد، وإذا قضت الصدفة بوجود فاضل فيهم فلا يكون نصيبه غير الشقاء، لأنهم لا يفهمونه، ولا يفهمهم، ويسيئون إليه وهو ينفعهم وليس أذى للحر من أن يخذله قومه، ولا آلم لنفسه من تخلى أهله عنه"[٢].

كذلك كتب فى مذكراته هذه العبارة الهامة التى خطها بيده :

"ما لم يصلح شأن المرأة صلاحاً حقيقياً، لا يمكن أن تنهض هذه الأمة من سقوطها الأدبى. وما دام الأجنبى صاحب السلطان فيها فمن الحال أن يحصل هذا الإصلاح، وإنما يحصل شئ تحت اسمه يكون فى الحقيقة من أندر أنواع الإفساد، ولذلك

---

(١) ورغم ذلك يتوجه سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية فى ٩ ينساير ١٩١٥ (بعد إعلان الحماية البريطانية على مصر بثلاثة أسابيع) إلى محطة العاصمة لاستقبال أول مندوب سامى بريطانى يعين فى ظل الحماية البريطانية على مصر وهو السير هنرى ماكماهون الذى حل محل اللورد كتشنر الذى أصبح وزيراً للحربية البريطانية.

(٢) مذكرات سعد زغلول الجزء الأول د. عبدالعظيم رمضان ج٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فإنا نبشر من تنبأوا بحس ظن لتقدمها، بخيبة آمالهم وطول كدرهم ما دام للأجنبى دخل فى أمورهم"[1].

ويظهر من هذه العبارة بجلاء تأثر سعد بأفكار صديقه المقرب المستشار / قاسم أمين، صاحب كتابى "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة"، وكان قد أهدى كتابه الأول سعد، إلا أنه لا يوجد ما يثبت أن سعداً وقف إلى جانب قاسم أو سانده علناً فى محنة الثورة العارمة التى واجهته بسبب مناصرته لحقوق المرأة. ورغم ذلك فقد قدر لسعد أن يواجه بنفسه، وبعد وفاة صديقه بعشرة أعوام، ظروفاً ساندته فيها المرأة بكل قوة، وكانت للثورة نصير ومؤيد.

سعد زغلول وهدى شعراوى

تميزت ثورة ١٩١٩ بمشاركة مكثفة ونشيطة إلى أبعد مدى من سيدات مصر اللاتى لم يكن قد خرجن من قمقم العثمانية بعد، ولم يكن لهن خبرة واسعة بالحياة السياسية من قبل. على أنه من المفيد أن نعود بذاكرتنا إلى تلك الأيام، العقد الثانى من القرن العشرين، لكى نمسك بطرف الخيط الذى ما زال يكر فى حياتنا إلى اليوم الأول ونحاول أن ننسج منه ثوباً متكاملاً نسميه : **المشاركة السياسية للمرأة المصرية.**

ولابد أن نتذكر أنه حتى هوانم ذلك الزمان لم يكن يتلقين إلا قدراً يسيراً من العلم، إما فى مدرسة إرسالية تبشيرية تنتمى

---

(١) مذكرات سعد زغلول المرجع السابق ج٧ ، ص١١٦.

لإحدى الدول الغربية، أو فى البيت. وغاية ما كانت العائلات الكبيرة تصبو إليه من تعليم بناتهن أن يجدن "الرطانة" بالفرنسية، لغة المجتمعات الراقية في ذلك الزمان، مع حفظ بعض آيات الكتاب الكريم، وربما تعلمن شيئاً من اللغة العربية، وقدر يسير من الموسيقى يتيح للهانم الصغيرة العزف على آلة أو اثنتين لتسلية ضيفات العائلة عند استقبالهن يوم "المقابلة". أما التاريخ أو الجغرافيا أو العلوم الحديثة أو الرياضيات.. الخ فلم تكن لها نفس الأهمية. لم يكن مطلوباً من المرأة قبل العصر الحديث أى شئ سوى أن تكون صورة جميلة تغرى الرجل باقتنائها، ومديرة منزل مطيعة تلبى رغباته الحسية وتخدم أبناءه منها أو من غيرها، فى مقابل تكلفة بإيوائها وإعالتها.

وعلى مدى التاريخ العربى حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، كان والد عائشة التيمورية استثناء فريداً، حيث استجاب لميل ابنته إلى التثقف، ورعى موهبتها الفذة، وتصدى لرغبة أمها فى أن تصنع منها النموذج الأنثوى السائد. أما هدى شعراوى فقد فقدت أباها وهى فى الخامسة من عمرها، ولم يجد الوصى عليها "على شعراوى" من وسيلة لرعايتها والحفاظ على ثروتها الكبيرة سوى أن يتزوجها، رغم فارق السن الكبير، ورغم أنه كان زوجاً وأباً لفتيات يكبرنها سناً. وهكذا صنعت هدى شعراوى نفسها، ولم يكن لأى أحد فضل عليها سوى الخالق سبحانه

وتعالى الذى حباها بالذكاء الحاد والروح الإيجابية الخيرة والإرادة القوية المسلحة بالوطنية العميقة.

وقد تركت لنا هدى شعراوى العديد من المقالات والخطب والبرقيات والبيانات ...الخ بالإضافة إلى مذكراتها التى تعتبر وثيقة تاريخية هامة تتيح لنا أن نعيد قراءة بعض أحداث ثورة ١٩١٩ م من منظورين مختلفين. من منظور امرأة ورجل، كان كل منهما دوره الأساسى فى تسيير الأمور أثناء وبعد الثورة، وقد تلاقت إرادتهما فى أحيان كثيرة ثم تباعدت بل تعارضت حتى انتهت إلى القطعية. أما الرجل فهو زعيم تلك الثورة بلا منازع، الفلاح المصرى المثقف سعد باشا زغلول، ومن حسن الحظ أنه سجل مذكراته أيضاً حول تلك الفترة التاريخية الهامة.

وقد خصصت هدى شعراوى جانباً كبيراً من مذكراتها لشرح أسباب وملابسات وتفاصيل ثورة ١٩١٩م وما تلاها من أحداث، انفصمت فيها عرى المودة والصداقة بين الرفاق، وتحولوا فى نهاية الأمر إلى الأحزاب متناحرة، تتبادل الاتهامات كما هى الحال دائماً بين المصريين. وحول هذه الظاهرة كتب سعد باشا فى مذكراته "**يؤسفنى جداً تفرق الآراء حيث يجب اتفاقها، وأن تتغلب على المصالح العامة، ويخيل لى أن هذا مرض محلى مصرى ويقال أن هذا عام فى كل الأقطار**".

فما الذى دفع هدى شعراوى بعد ثورة ١٩١٩ إلى هذا المنحنى، وكيف اقتنعت بوجهة نظر زوجها، وانتقلت من خانة

المعجبين بالزعيم سعد زغلول، زعيم الأمة، ومن أكبر مناصريه وأنشطهم، إلى خانة المعارضين له، المنضمين إلى أعدائه.

وأياً كان الأمر فبينما السياسة التى كان سعد زغلول يتبعها فى استنفار همم المصريين جميعاً، مسلمين وأقباط، كانت المرأة المصرية أثناء الثورة، وفى مقدمتها هدى شعراوى، على وعى تام بأهمية الوحدة الوطنية، وقد تعمدت أن تجمع الأحداث بين كل المصريات، وكانت أغلب الاجتماعات تتم فى الكنيسة المرقصية، بحضور المسلمات والمسيحيات، وكن يوقعن البيانات وعرائض الاحتجاج والقرارات بأسمائهن الشخصية أو بالانتماء لأزواجهن. وسنجد من بين هؤلاء فريدة سينوت حنا ووصيفة خياط وبرلنتى ويصا واصف واستر فهمى ويصا وكثيرات غيرهن. وعندما أصدرت هدى شعراوى مجلة المرأة المصرية باللغة العربية (من عام ١٩٣٧-١٩٤٠) كانت هى رئيسة التحرير وأيفا حبيب المصرى سكرتيرة التحرير. لقد لعبت المصرية القبطية دوراً بالغ الشجاعة أثناء الثورة، واتخذت المواقف والمبادرات التى تنم عن وطنية صادقة وروح إيجابية رائعة.

وفى مسيرة سلمية ضمت جميع الهيئات المصرية من جيش وقضاة ومحامين وموظفين ومن علماء الأزهر وطلابه وعمال ورجال الدين من جميع الأديان، لم يفت النساء المصريات من كل الطبقات المشاركة فيها، البعض داخل سيارتهن أو عرباتهن، وأخريات على عربات الكاور وكن جميعهن يحملن العلم المصرى

فى أيديهن ويلوحن به فى جرأة مُتَحدِين جنود جيش الاحتلال. وقد أثار مشهد النساء المصريات جنود الاحتلال إلى أبعد مدى، ولعله أشعل فى قلوبهم مشاعر الخوف إلى جانب الغضب من هذه المخلوقة التى لم يتعرفوا عليها ولم يألفوا وجودها حولهم، حتى ظنوها غير موجودة. ولا شك – فى تقديرى– أن الحجاب العثمانلى والمشربيات والحراسة المدججة على الحريم كانت تثير خيالهم، وتجعلهم يتصورون أنواع المتع الحسية والملذات الجسدية التى تتفرغ النساء الشرقيات لتقديمها لسيدها الرجل وتجعل منها هدفاً وحيداً لوجودها. لذلك أصيبوا بالذعر عندما ظهرت المرأة المصرية فجأة، بعد أن مزقت الشرنقة التى فرضها عليها محتل سابق، وغادرت عرينها وأبدت شجاعة تصل إلى حد الاشتباك بالأيدى مع جنود الاحتلال.

وقد ذكرت هدى شعراوى فى مذكراتها، أن العديد من النساء اللاتى أرغمتهن الظروف على عدم ترك بيوتهن، كن يجتمعن فى شرفات البيوت ويهتف ويصفقن للمتظاهرين، وكثيراً ما كان جنود الإنجليز يوجهون رصاصاتهم إلى هؤلاء النسوة، فكانوا يجرحون البعض ويقتلون البعض الآخر. وكما سقط الألوف من الأطفال والشبان والشيوخ، شهداء فى سبيل وطنهم، ذكرت أسماء النساء المصريات الباسلات اللاتى سقطن شهيدات فداء مصر برصاص الإنجليز ومن بينهن : السيدة شفيقة بنت محمد والسيدة

عائشة بنت عمر، والسيدة فهيمة رياض، والسيدة حميدة بنت خليل، والسيدة نجية إسماعيل.

قامت النساء المصريات بدور كبير أثناء إضراب الموظفين، وكن يشجعن أزواجهن وأبنائهن على عدم الذهاب لأعمالهم، بل وقفت الكثيرات على أبواب الدواوين لمنع المتخاذلين من الدخول إلى مكاتبهم، وكن ينتزعن أساورهن وحليهن، ويقدمنها لهم قائلات : إذا كان احدكم فى احتياج لمرتبة فليأخذ هذه الحلى، ولا تسودوا وجوهنا بالرجوع إلى أعمالكم بعد صدور الإنذار البريطانى.

المقاطعة

وفى ٢٠ يناير ١٩٢٢، بينما كان سعد زغلول منفياً بجزيرة سيشيل، اجتمعت السيدات المصريات فى جلسة فوق العادة وقررن إعلان المقاطعة العامة لكل ما هو إنجليزى من بضائع وأشخاص سواء كانوا تجاراً أو موظفين أو أطباء أو صيادلة ... الخ. وعدم معاملتهم قطعياً وزعت السيدات دعوة المقاطعة فى كل أنحاء القطر المصرى.. وقد استجابت كل قوى الشعب لنداء النساء المصريات، وكانت لتلك المقاطعة آثارها الوخيمة على الدولة العظمى، وفى نفس الوقت بدأت الدعوة إلى التعامل مع الصناعات الوطنية وتشجيعها. ولم تكن المقاطعة التى دعت إليها اقتصادية فقط بل كانت سياسية أيضا فنرى اللجنة قد أصدرت فى أحد اجتماعاتها قراراً بمشاركة الأمة فى عدم الاعتراف بأى وزارة تشكل قبل

سحب مشروع كيرزون واللورد اللنبى وعودة الزعماء المنفيين من منفاهم وإلغاء الأحكام العرفية والحماية الباطلة التى أعلنت على مصر سنة ١٩١٤م".

لم يكن نضال المرأة المصرية أثناء الاحتلال البريطانى بمعزل عن نضال الرجل المصرى، بل تم برضاه وتشجيع أغلبية القوى التقدمية والوطنية، وعلى رأسهم سعد باشا زغلول زعيم الثورة. وكان الشعب المصرى يرقب تحركاتهم الوطنية بكل الإعزاز والإعجاب. وعندما خرجت كل نساء القاهرة فى مظاهرة سلمية احتجاجاً على أعمال القمع التى كانت تصدر عن السلطة العسكرية الإنجليزية ضد الثوار، **نظم حافظ إبراهيم شاعر الوطنية قصيدة فى بسالة المصريات استهلها بقوله :**

خرجت الغوانى يحتججن ... ورحت أرقب جمعهن
فإذا بهن يتخذن من ... سود الثياب شعارهن
وأخذن يحتجزن الطريق ... ودار سعد قصدهن
وإذا بجيش مقبل ... والخيل مطلقة الأعنة
وإذا الجنود سيوفها ... قد صوبت لنحورهن
والخيل والفرسان قد ... ضربت نطاقاً حولهن

وفى الوقت نفسه لم يكن أداء المصريات النشيطات فى الحركة الوطنية مجرد صدى وترديد وتكرار لأداء الرجال، وإنما كانت

لهن أراؤهن المستقلة التى وصلت بعض الأحيان إلى حد المعارضة للزعامة الوطنية.

وعندما اشتعلت المعركة الوطنية لم تشأ النساء، خاصة من الطبقات الراقية والمتعلمة بزعامة هدى شعراوى، أن يحرمن من شرف النضال الوطنى، أو تكتف بالتظاهر والاحتجاج مباشرة لدى المسئولين وتوزيع البيانات على الشعب وكتابة المقالات فى الصحف، بل قررن تنظيم صفوفهن، وبدء مرحلة من الجهاد المنظم، وقمن بتشكيل "لجنة الوفد المركزية للنساء"، وأعلنت اللجنة الجديدة أن مهمتها، مساعدة "اللجنة المركزية للوفد المصرى" وتبليغ الوفد المصرى أمانى السيدات المصرية، والسعى بكل ما يمكنها لاستمرار المطالبة باستقلال مصر استقلالاً تاماً. كما حدث مع لجنة الرجال، انهالت على اللجنة النسائية التوكيلات الصادرة عن المواطنات فى جميع أنحاء مصر التى أكدت انتخابهن لتمثيل النساء المصريات لدى كل الهيئات.

وعلى الرغم من تأييد سعد للجنة ونشاطها الفائق إلا أن مندوبى الوفد الذى أرسلهم من باريس لعرض مشروع الاتفاق على جميع الهيئات فى مصر، ظلوا على ما كانوا عليه من عدم الاعتراف بحق النساء فى العمل النسائى، وتجاهلوا اللجنة، وأعلنوا أنه لا يجوز للنساء التدخل فى الأمور السياسية. ولكن نساء مصر لم يستسلمن لهذا الأمر بل قمن بواجبهن على أكمل وجه، ودعت هدى شعراوى زميلاتها إلى الاجتماع فى بيتها برمل الاسكندرية

يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠. وعكفن على دراسة المشروع وأبدين ملاحظات عامة عليه، وقررن عدم صلاحيته لأن يكون أساساً لمعاهدة تعقد بين مصر وإنجلترا إلا إذا أضيف إليه خمسة عشر تحفظاً أرسلنها جميعاً إلى مندوبى الوفد المصرى ونشرنها فى جميع الصحف المحلية. والتوصيات كلها تحرص على استقلال مصر والحفاظ على كيانها، وإلغاء الحماية البريطانية عليها وإلغاء الامتيازات الأجنبية، وغير ذلك مما يدل على عمق الوعى السياسى للنساء المصريات فى ذلك الوقت والمامهن بالشئون السياسية.

ثم أرسلت هدى شعراوى إلى سعد زغلول رسالة تحتج فيها بشدة على تصرفات مندوبى الوفد، وتطالبه فيه بإعلان ما سيكون عليه مركز المرأة المصرية فى المستقبل بعد التوصل إلى حد مُرضٍ مع الإنجليز. **وقالت فى رسالتها** : والذى يزيد من استيائنا هو أن يثبت الوفد بعمله هذا ظن الهيئات الأجنبية بمصر اللواتى أولن نهضتنا بخلاف الحقيقة، حيث قالت أن اشتراك النساء فى الحركة المصرية لم يتم بدافع الوطنية، بل بإيعاز فئة من الوطنيين لاستعمالهن كآلة مؤقتة لإيهام الأمم المتحدة بنضوج الأمة المصرية فى الرقى وكفاءتها لحكم نفسها بنفسها".

وفى ٢٧ أكتوبر ١٩٢٠ وصل لهدى شعراوى رداً من سعد زغلول رئيس الوفد يعتذر بشدة عما بدر من مندوبى الوفد ويرحب باقتراحاتهن ويقول فيه : " ولكنى أؤكد لحضراتكن أنهم لم يفعلوا ذلك استخفافاً بكن أو إهمالاً لشأنكن، بل لظروف أجنبية عن هذا

المعنى، ولوكنت فيهم لأمتنع تأثير هذه الظروف، ولتعين على أن أقوم بشخصى بعرض المشروع عليكن وتوضيح معانيه ومراميه رغبة فى الاستنارة بآرائكن التى لها المقام الأول من الاعتبار عندى وعند زملائى. ويسرنى جداً أنكن مع ذلك فهمتن المشروع حق الفهم وأبديتن فيه تحفظات أراها فى غاية الأهمية وأرى التشبث بها من أخص أحبائى، وأنى أول من يرى أنه لا يمكن أن تتقدم هيئة اجتماعية بدون أن يشترك حسكم اللطيف فيها ..".

وبعد هذا وصلت هدى شعراوى ورفيقاتها رسالة أخرى من سكرتير الوفد فى ذلك الوقت مصطفى النحاس يقول فيها : أننا لنفخر بنهضة سيداتنا واهتمامهن بمستقبل البلاد. ويسرنا أن تتفضل اللجنة المركزية للسيدات بأن ترسل الينا برأيهن فى مشروع الاتفاق وملاحظاتهن عليه. وأننا سنحلها محل الاعتبار اللائق بها".

والجدير بالذكر أن سيدات مصر لم يغرهن هذا الاحتفاء الكبير من زعيم الوفد وسكرتيره، ظللن محافظات على استقلالهن الفكرى، مصرات على الشفافية وتبادل الأراء فى العلن وبلا أى جنوح للمجاملة على حساب مصلحة مصر والمصريين، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى مفترق الطرق وتصاعد الخلاف بين زعيمة النساء هدى شعراوى وزعيم الأمة سعد زغلول إلى حد القطعية الكاملة، وقد كانت علاقتهما على قدر كبير من الإثارة التى تستحق التأمل والدراسة.

الرئيس والرئيسة

لم تكن علاقة هدى شعراوى بزعيم الثورة والأمة سعد زغلول علاقة عادية، بل كانت علاقة درامية تتسم بالمد والجزر، بالصعود والهبوط، بالدفء وتبادل الإعجاب علناً وبالافتراق وتبادل الاتهامات ثم القطيعة. وهى تعطى صورة حية لما كانت عليه الحياة الاجتماعية والسياسية فى مصر فى بداية القرن العشرين، وتمثل نموذجاً حياً لما يمكن أن تكون عليه الفروق بين ممارسة الرجل للسياسة وممارسة المرأة. فالمرأة تعطى اعتباراً أكبر للعلاقات الإنسانية، وتميل إلى لعب دور التهدئة والتوفيق بين الاتجاهات المختلفة، فى وقت يحتاج للتكاتف والتضامن بدلاً من الشقاق والصراع.

ومما لا شك فيه أن على شعراوى باشا لعب دوراً كبيراً فى التأثير على زوجته هدى شعراوى، وفى تكوين آرائها حول سعد والوفد. عاد فجأة من باريس متعللاً بسوء صحته، وانتشرت الشائعات عن خلاف دب بينه وبين سعد باشا أدى إلى تركه أمانة صندوق الوفد وعودته إلى مصر، فلما سألته اعترف بأن سعداً غضب منه لأنه ألح فى سؤاله عن أوجه صرف مبالغ الوفد التى كان يطلبها منه، لكى يدونها فى دفاتر حساب الوفد، وأنهما تصافيا وتصافحا، ولكنه فوجئ بأن سعداً لم يطلب منه الاشتراك مع مندوبى الوفد الذين جاءوا لعرض مشروع ملنر على الهيئات المصرية. وبناء على ذلك قرر زوجها عدم الذهب إلى المحطة لاستقبال سعد عند عودته من

باريس، أما هى فقد ذهبت مع لجنة السيدات وشاركن فى الاستقبال الشعبى لسعد، وعادت مع كبار رجال الوفد إلى بيته، بيت الأمة وتعترف هدى بأن موقف زوجها من سعد سبب لها الحرج والارتباك **فتقول فى مذكراتها** : "ولما عدنا إلى منزل سعد باشا الذى كان غاصاً بالجماهير من الرجال والنساء، وقد نصب فى جانبيه سرادقان أحدهما للرجال والآخر للنساء، كنت أشعر بشئ من الخجل لوجودى فى ذلك الجمع، بينما زوجى الذى خدم الوفد – ولولا خدمته ما كسب ثقة الأمة – قد بقى منفرداً فى بيته لا تعرف الأمة له قدراً ولاحقاً. وبينما أنا فى ذلك الجمع الحاشد ينتابنى ذلك الشعور وتمر فى مخيلتى تلك الأفكار، إذا بصوت سعيد أغا ينادينى ويقول لى : أن سعد باشا يبحث عنك ويقول أين الرئيسة . . . فدفعنى حرج مركزى إلى التوارى بعيداً عن عينى سعد، ولكنى صادفته وأنا فى طريقى للخروج وهو يشق صفوف السيدات قائلاً: أين الرئيسة لأشكرها.. فتقدمت نحوه، وهنأته بسلامة العودة، ورجوت شريفة هانم رياض وباقى أعضاء الوفد السيدات أن ينبن عنى، ويعذرننى فى ابتعادى للسبب الذى يعرفنه من حرج الموقف،وخرجت".

وفى اليوم التالى توجه سعد إلى منزل على شعراوى باشا، وترك لها وحدها بطاقة شكر على مقابلته بالمحطة وزيارته فى السرداق. ثم عاد فى اليوم التالى وأزال عنها الحرج الشديد الذى شعرت به، فزار زوجها وصافحه.

ورغم ذلك عاد الخلاف بين الأستاذ والتلميذة النجيبة يظهر مرة أخرى بسبب موقف سعد من عدلي يكن. ففي ١٦ مارس عام ١٩٢١ شكل عدلي يكن وزارته الأولى، وسافر إلى باريس على رأس وفد رسمي ليفاوض الإنجليز على الجلاء عن مصر. وعاد سعد زغلول من أوروبا في ٥ إبريل ليشن حملة شعواء على هذه المفاوضات ويسخر من المشاركين فيها معلناً عبارته الشهيرة: ان جورج الخامس يفاوض جورج الخامس. وانفجرت مظاهرات دامية في الإسكندرية احتجاجاً على تعيين عدلي يكن رئيساً للوفد، وقد ظل عدلي ورجاله في باريس يحاولون الوصول إلى حل مرض مع الإنجليز حتى نهاية العام، ألا أنهم باءوا بالفشل وأخيراً أعلن عدلي فشل مفاوضاته مع الإنجليز وقدم استقالته فقبلها السلطان أحمد فؤاد.

قبل وصول عدلي يكن إلى مصر توجهت هدى ومعها نساء اللجنة إلى بيت سعد (بيت الأمة) كي يتوسطن لعدلي يكن لدى سعد، وطلبن منه أن يأمر رجاله بألا يقابلوه في المحطة بالبيض والطماطم. لم يكتف سعد برفض الطلب بل اتهم النساء بقبول رشوة من عدلي **وقال لهن** : " من هو ذا عدلي ؟ الأمة كلها معي، فردت عليه مدام خياط : إذا كان في الأمة واحد يخالفك في الرأي، فالأمة إذن ليست بالإجماع معك، واحتد عليهن فأرسلن إلى هدى شعراوي التي كانت في صحبة صفية هانم، لكي تخرج.

وتذكر هدى شعراوى فى مذكراتها أن صفية هانم كانت على رأى سعد، حتى أنها لما سمعت هدى ترجوه أن يقابل عدلى بمثل ما قابله من حفاوة يوم عودته للوطن، تدخلت وحثته على رفض ذلك الطلب. **وتصف هدى هذا الموقف الدرامى** بأسلوبها الشيق : "فتهمل قليلاً كأنه لم يكن ينتظر منى مثل هذا الطلب، ثم قال : والله لو كان الأمر متعلقا بى شخصياً، لأجبت رغبته إرضاء لخاطرك، ولكن أن رضيت أنا، لا يرضى غيرى بذلك. فقالت له هدى : ومن الذى يخالفك فى الرأى إذا أردت شيئاً؟ فأسرعت صفية هانم وقالت له : والله يا سعد لو وضعت يدك فى يد عدلى، لن أكون لك زوجة بعد الذى فعله. فقال لهدى : أسمعت يا سيدتى بأذنيك؟

استمر سعد على موقفه مع عدلي وثروت، ووصل إلى حد اتهامهما بالخيانة، وانتهى الأمر بأن أصدرت سلطات الاحتلال قراراً بنفى سعد للمرة الثانية، وفى الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ فاقتحمت فصيلة من الجنود الإنجليز بيت الأمة، واعتقلت سعداً، لتنفذ القرار بنفسه إلى سيشيل. وقد أدى هذا إلى اتحاد صفوف الوطنيين من جديد، وزالت الخلافات، وكانت هدى شعراوى توالى الاجتماعات فى بيتها وفى بيت سعد زغلول وتحرص على مواساة زوجته وتسعى لعمل كل ما يمكنها هى وعضوات اللجنة على إظهار اعتراضهن على قرار النفى ورفضهن لوجود الإنجليز فى مصر. ثم بدأت سيدات

مصر بزعامة هدى شعراوى حملتهن الناجحة لتنفيذ قرار مقاطعة البضائع الإنجليزية، وإرسال خطابات الاحتجاج الشديدة لكل من تسول له نفسه التعاون مع الإنجليز او مهادنتهم[1]. والاعتراض على وثيقتى الغاء الحماية على مصر اللتين صدرتا فى أول مارس ١٩٢٢ لما يشوبها من نقص.

وقد واصلت هدى ورفيقاتها متابعة الأحداث السياسية الجارية، والتعليق عليها وإبداء رأى نساء مصر فيها، وظلت تكتب بالفرنسية بيانات احتجاج إلى القناصل الأجانب تنشرها الصحف المصرية، وبالإنجليزية إلى اللورد اللنبى، ليبلغها إلى حكومته إحتجاجاً على القاء القبض على سعد ونفيه إلى سيشيل على الرغم من شيخوخته ومرضه. وطوال هذه الفترة الخصبة من حياة هدى والمرأة المصرية، لم تتوقف عن مراسلة سعد، فى منفاه للاطمئنان على صحته، وإيقافه على مجريات الأمور، وكذلك إرسال برقيات لزوجته فى مصر والخارج، وكانت تصلها من سعد خطابات الشكر والتشجيع. وعندما حل العيد أصدرت لجنة نساء الوفد المركزية إعلاناً بقرارها عدم الاحتفال بالعيد بسبب إيعاد سعد، وبعد يومين اجتمع رجال الوفد وقرروا نفس الشئ فى نداء إلى الأمة أصدروه يوم وقفة عيد الفطر.

---

(١) خطابها إلى عبدالخالق ثروت، ص ٢٨٢.

وفى نوفمبر ١٩٢٣م كانت هدى فى أوروبا وعادت على نفس الباخرة التى عاد عليها سعد من منفاه، وقد دارت بينهما حوارات وأحاديث أعربت فيها هدى عن احتجاجها على موافقة وزارة نسيم باشا على التفريط فى (حق مصر) فى السودان. **ويبدو أن سعداً كان له رأى آخر فى هذه المسألة، وقد بدأت العلاقة منذ ذلك التاريخ تتحول إلى نوع من الصراع بين السيدة المصرية الثائرة التى لا تتنازل عن أى حق تراه من حقوق بلادها، وبين السياسى المحنك العجوز.**

وعلى الصعيد السياسى الدولى، توالت توابع الزلزال الذى أنفجر فى تركيا ففى عام أول يناير ١٩٢٠ وجهت الضربة القاضية لأصحاب الطرابيش من أتباع الخلافة التركية بالغاء أتاتورك السلطنة العثمانية، واعتمد البرلمان التركى الميثاق الوطنى الذى ينص على استقلال تركيا فى حدودها الوطنية، ثم إعلان الجمهورية التركية عام ١٩٢٣ ومصطفى كمال أتاتورك رئيساً للجمهورية. وفى العالم التالى تم إلغاء الخلافة التركية ونفى السلطان العثمانى المخلوع عبدالمجيد وكل الأسرة المالكة من تركيا، وتبع ذلك حل جمعيات الدراويش وإلغاء وظائف المفتى والإمام الملا وحظر ارتداء العمامة. ولا يكتفى أتاتورك بكل ذلك بل يصدر قراراً فى ٢٨ أغسطس بحظر تعليم اللغة العربية فى المدارس التركية!

ويواصل المصريون محاولاتهم للظفر باستقلال بلادهم وإنهاء الاحتلال البريطانى لأراضيها فلا يظفرون إلا بما سمى

تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ بإنهاء الحماية على مصر مع التحفظات الأربعة. وبناء على هذا التصريح ينتهز الأمير أحمد فؤاد الفرصة فيعلن نفسه ملكاً فى البلاد فى ١٥ مارس ١٩٢٢. ويعود سعد زغلول من منفاه فى سيشيل فى ٢٩ مارس ١٩٢٢ ويبدأ حركة نقد شديدة للاتفاق الذى أبرم بين الحكومة المصرية والبريطانية، وفى ٢٥ إبريل ١٩٢٢ يعلن عبدالخالق ثروت رئيس الوزراء استقلال مصر. ويصدر قراراً بتشكيل لجنة لوضع الدستور برئاسة حسين رشدى باشا ومن أعضائها عبدالعزيز فهمى. إلا أن سعداً الذى أصبح زعيماً شعبياً يطلق عليها " لجنة الأشقياء" وتنشق مجموعة من رجال الوفد على سعد زغلول ويعلنون فى أكتوبر تأسيس حزب الأحرار الدستوريين.

الخلاف الأخير

أما الخلاف الأكبر بين هدى وزعيم الأمة فكان عام ١٩٢٣م، بعد أن ألقى الملك فؤاد خطاب العرش وأغفل الإشارة إلى حقوق المرأة، فأرسلت هدى إلى سعد بصفته رئيس مجلس النواب والشيوخ خطاباً تحتج فيه على عدم اعتراضه على ذلك. وتُدعى هدى شعراوى وسيزا نبراوى ونبوية موسى إلى روما لحضور المؤتمر النسائى الدولى، وبعد عودتهن إلى مصر يعلن تأسيس "الاتحاد النسائى المصرى"، ويصبح لنساء مصر حزباً مستقلاً يعبر عن أرائهن دون التزام باتجاهات الأحزاب السياسية المختلفة وميول

زعمائها. وتبدأ هدى شعراوى مرحلة من النقد القاسى لسعد تعمل على نشرها فى الصحف المعارضة للوفد. وفى مارس ١٩٢٤م يتولى سعد الوزارة، ويعلن الدستور المصرى فى ١٩ إبريل دون منح المرأة حقوقها السياسية. الأمر الذى زاد من تباعد الشقة بين سعد ونساء عصره.

ثم يحدث الصدام الثانى عندما تثور مسألة السودان فى مجلس النواب ويجئ رد رئيس الوزراء، وزعيم الأمة، صدمة لهدى ولعدد كبير من الوطنيين، فتنتهز هدى الفرصة لإعلان معارضتها لسعد، وترسل بياناً باسم الاتحاد النسائى إلى كل الصحف، تهاجم فيه سعداً على تراخيه فى مسألة السودان، وفى مسألة التعويضات والتضمينات، وتلومه على أن وزارته لم تجر أية تعديلات على خطاب العرش،وتنهى هدى هانم بيانها بعبارة خطيرة.

"فى هذه الحالة، يعلن الشعب المصرى الكريم رجالاً ونساء أنه لا يوجد خطر على القضية المصرية أكبر من أن يتولى المفاوضات مع إنجلترا رجل يعترف علانية أمام هيئة رسمية بأنه عاجز عن تنفيذ ما عاهد به الأمة قبل وعند توليه الحكم"[1].

لم تتوقف هدى عن توجيه الخطابات شديدة اللهجة إلى سعد زغلول تنتقد قراراته وتعترض على قبوله الوزارة ثم مهادنته

---

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ٣٠١.

للإنجليز وخضوع وزارته لطلباتهم وتتهمه بأنه كان السبب وراء فصل السودان عن مصر، **وتقول فى أحد خطاباتها إليه** : "تمسكت بك البلاد، وعهدت إليك بالحكم رجاء أن تفى بما وعدتها من تحقيق استقلالها التام فى مصر والسودان. وها أنت ترى أنه كلما طال العهد على ولايتك الحكم، كلما بعدت الأمة عن نيل هذه المطالب".

وقد وصل الأمر إلى حد أن تطالبه بالاستقالة حتى استقال فعلاً يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤م. وحتى ذلك لم يرضها وإنما دعت الزعيمة إلى مؤتمر نسائى كبير، وفى ٢٨ نوفمبر ١٩٢٤ اجتمعت السيدات وأصدرن عريضة احتجاج على العديد من المواقف السياسية "الرجعية" للوزارة السعدية والوزارة التى تلتها برئاسة أحمد زيور. ودعون إلى مقاطعة البضائع والمتاجر والمصارف البريطانية وتأسست اللجنة المركزية للمقاطعة، رئاستها فى القاهرة ولها فروع فى الإقاليم. وعادت الزعيمة هدى تنتقد تشبث الزعيم سعد بالرأى وتتهمه بعدم التعاون مع بقية الأحزاب (الوطنى والأحرار الدستورى) وعدم تقديم برنامج لحزبه (السعديين) الخ .. **وكتبت تقول : "إننا لا ننقاد انقياد الأعمى لإنسان مهما كانت قيمته، ومكانته بين الأمة، وإنما ننقاد للمبادئ الحقة".**

وقد تسبب موقف هدى الحاد من الزعيم إلى انشقاق فى صفوف الاتحاد النسائى اللاتى لم يستطعن أن يتقبلنه، واستقالت حرم رياض باشا ثم عهد إليها الوفد بتأسيس لجنة جديدة للسيدات برئاستها. وساهمت سياسة وزارة أحمد زيور المؤيدة للسراى

والإنجليز فى قمع الاجتماعات ومنع المظاهرات وفرض الرقابة على الصحف ومصادرتها وحبس الوطنيين وتعقبهم، فى عرقلة نشاط هدى شعراوى السياسى، إلا أنها لم تتوقف عن النشاط الاجتماعى وركزت على المطالب الاجتماعية للمرأة المصرية.

فاتحة خير

إن اشتراك النساء المصريات فى الحركة الوطنية أثناء ثورة ١٩١٩م، وكل تلك الأحداث نبهت العالم الخارجى إلى نشاط المرأة المصرية ونضوج الأمة المصرية وكفاءتها لحكم نفسها بنفسها، الأمر الذى حفز الاتحاد النسائى الدولى إلى ارسال دعوة لهن لحضور المؤتمر الذى يعقد فى روما. وهنا فكرت هدى شعراوى فى تأسيس جمعية "باسم الاتحاد النسائى المصرى". وفى ١٦ مارس ١٩٢٣م، وجهت الدعوى إلى بعض السيدات للاجتماع بمنزلها لانتخاب لجنة تمثل نساء مصر فى المؤتمر. وقد انتدبت **الجمعية هدى شعراوى ونبوية موسى وسيزا نبراوى، وكانت هذه هى أول مرة يرتفع فيها صوت المرأة المصرية فى الخارج. وقد جاء فى القانون الأساسى للاتحاد المادة الثانية : أن أغراض الجمعية هى رفع مستوى المرأة الأدبى، والاجتماعى للوصول بها إلى حد يجعلها أهلاً للاشتراك مع الرجل فى جميع الحقوق والواجبات. المادة الثالثة : تسعى الجمعية بكل الوسائل المشروعة لتنال المرأة المصرية حقوقها السياسية والاجتماعية.**

وفى المؤتمر بروما أحدث الوفد "تأثيراً كبيراً ولقى ترحيباً عظيماً لأنه ظهر أمامهن بمظهر أرقى مما كن ينتظرن، فصرن يسألن فى فضول والحاح إن كنا حقاً مصريات، وكلما أكدنا لهن ذلك شاهدنا علامات الدهشة على وجوههن كأنما كانت المرأة المصرية المحجبة مطبوعة فى مخيلتهن بطابع الجهل والهمجية. **وفى خطابها الذى وجهته للاتحاد العالمى يظهر بجلاء تأثر هدى بكتابات قاسم أمين، فهى تهاجم النقاب وتعتبره" من أكبر العوامل التى أدت إلى بقاء المرأة فى درجة من العلم لا متأخر عنها ولا متقدم"**، وتنتقد تعدد الزوجات فهو ليس سوى عادة كانت منتشرة عند قبائل العرب قبل الإسلام ويمكن الغاؤه بقانون، فهى عادة توجد الشقاق فى الأسر وتولد البغضاء بين الأخوة والأخوات من أمهات مختلفة "وتذكر الآية القرآنية : "وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة" ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم" أما عن مشاركة المرأة فى الحياة العامة فلا عائق دونه سوى جهل المرأة". ولكن بما أن القوانين لا تشتمل على أى تقييد يعلق بكفاءتها فسيكون فى وسعها متى شاءت أن تطمح إلى الوظائف العمومية وجميع المهن التى يحترفها الرجال والاشتراك فى كافة الجمعيات[١]. **ولم يكن الأمر بتلك البساطة التى صورتها هدى لنساء العالم وإنما كان**

---

(١) المرجع السابق مذكرات هدى شعراوى، ص٢٥٧.

على المرأة المصرية أن تكافح لمدة ربع قرن بعد ذلك لكى تحقق هذا الأمل.

وفى ٢ يوليو سنة ١٩٢٣م التقى وفد من الجمعية برئيس الوزراء يحيى إبراهيم باشا، ولم تكن هدى شعراوى من بينهن، بل حملت زميلاتها رسالة منها إليه طالبت فيها : بحق المرأة المصرية فى نيل الشهادات الدراسية الثانوية والعالية، ومنع زواج الفتيات قبل وصولهن لسن السادسة عشرة. ولما لم تجد السيدات صدى لرغباتهن عادت هدى فخاطبت رئيس الوزراء فى ٢٣ نوفمبر ١٩٢٣ مبدية دهشتها من عدم تحويل المطلبين إلى البرلمان ليبت فيهما.

وعندما قدمن طلبا لحضور حفل افتتاح البرلمان، لم يقبل طلبهن فى الوقت الذى دعيت فيه سيدات أجنبيات لحضور ذلك الحفل، فأصدرن بيان احتجاج على ذلك. وبعد أسبوعين وجهن بياناً آخر لمجلس الشيوخ والنواب بمناسبة خطاب العرش يطالبن فيه بتعديل الدستور وإصلاح قوانين الصحافة وتقوية الجيش المصرى دون ذكر أية مطالبات نسائية.

وكانت هدى تحدد مطالبها بكل وضوح وتنشرها فى كتيب أرسلته إلى رئيس مجلس الشيوخ ورئيس مجلس النواب وإلى الصحافة والرأى العام، ومن أهم المطالب السياسية التى طالبت بها إلغاء الحماية البريطانية على مصر والاستقلال التام لمصر والسودان والتمسك بحياد قناة السويس والغاء الامتيازات الأجنبية

وكذلك " عدم تحميل الخزانة المصرية قسماً من ديون تركيا القديمة، فإن سيادة تركيا على مصر زالت وليس لها عليها أى حقوق". وهكذا تكف هدى شعراوى عن روح الاستقلال التى سادت مصر وأيقظتها من سبات طويل دام لعدة قرون تحت مظلة الهيمنة العثمانية. ولم تكن تلك كل المطالبات، بل طالبت بتعديل الدستور المصرى ووضعت أربعة عشر مطلباً اجتماعياً تكمل بها مسيرة قاسم أمين وملك حفنى ناصف فى الإصلاح الاجتماعى، وفى "القسم النسوى" حددت مطالبها بالنسبة لحقوق المرأة المهضومة: وهى حق التعلم بلا حدود والحقوق السياسية "ولو بقيود" كاشتراط التعليم أو دفعها نصاباً معيناً من مالها. ولا يكون من الإنصاف الاعتراض على اشتراك هذه الطبقة من النساء سيما وقانون الانتخاب يجعل للرجل الأمى والخالى من الملك حقاً فى أن ينتخب وينتخب"[١]. منع تعدد الزوجات "إلا لضرورة، تقييد الطلاق فلا يتم إلا أمام القاضى الشرعى وبعد التحكيم. وفى إبريل ١٩٢٦م أضافت ثلاث طلبات أخرى هى إصلاح القوانين الخاصة بما يسمى بيت الطاعة، الذى وصفته بأنه أخطر من دور السجن المعدة لأيواء الأشقياء والمحكوم عليهم بارتكاب الجرائم والمنكرات،" وحق الأم فى حضانة أولادها، وإلغاء منشور سنة ١٩٢٤م المعطل لقانون تحديد سن الزواج (ويقر بشهادة الأبوين أن أبنتهما قد بلغت السادسة عشرة دون تقديم شهادة ميلاد أو طبية تفيد ذلك).

---

[١] المرجع السابق مذكرات هدى شعراوى، ص ٣٣١.

ويبدو أن سفر السيدات المصريات إلى روما (دون محـارم) وتحدثهن فى مؤتمر دولى عن تعدد الزوجات والطلاق.. الــخ قــد أثار حفيظة بعض الرجال فراحوا يهاجمونهن فى الصحف[1]. لقــد تنبهت هدى إلى أن المشاركة السياسية للمرأة لن تتم قبل أن تحــوز هى على حريتها" وتنظم شأنها فى العائلة ومركزها فــى المجتمــع" وإن انشغالها بالعمل السياسى لا يجب أن يلهيــها عــن المطالبــة بحقوقها حتى وإن اضطرت لأن تترك الأمــور السياســية مؤقتــاً، خاصة بعد أن صدمت فى موقــف الرجــال منــها عنــد إصــدار الدستور. ويبدو أنها واجهت معارضة ضاربة، فقد تراجعــت بعــد سنوات وعندما حضرت مؤتمر الاتحاد النسائى الدولى فى مارسـيليا (١٨–٢٠ مارس ٢٣) الذى كان يركز علــى حــق المــرأة فــى الانتخاب، قررت أن هذا الموضوع سابق لأوانه بالنســبة لمصــر حيث النظام البرلمانى لم يستقر استقراراً تاماً وركز الوفد المصــرى على موضوع مقاومة الرقيق الأبيض.

وكانت هدى شعراوى زعيمة المرأة حريصة كل الحــرص على ألا تتعدى على قواعد الشريعة الإسلامية او تخــرج عليــها، وعندما أرسل لها الكاتب سلامة موسى أن تطالب وزارة الحقانيــة بسن قانون يساوى بين المرأة والرجل فى الميراث رفضت الخوض فى تلك المسألة معلنة فى مقال نشرته بجريدة السياسية : "**ولا أظــن**

---

[1] عبدالعزيز جاويش بجريدة الأخبار.

أن النهضة النسوية فى هذه البلاد لتأثرها بالحركة النسوية بأوروبا يجب أن تتبعها فى كل مظهر من مظاهرها. وذلك لأن لكل بلد تشريعه وتقاليده وليس كل ما يصلح فى بعضها يصلح فى البعض الآخر"، ثم دافعت عن ذلك التشريع "فبينما الشرقية غير المتساوية بالرجل فى حق الميراث تتمتع بكافة أنواع الاستقلال فى إدارة أعمالها وأموالها، نجد الغربية المساوية لأخيها فى الميراث محرومة من هذه النعم، إذ لا يمكنها أن تنفق أى مبلغ من مالها، ولا أن تحترف أى حرفة دون تصديق زوجها وموافقته".

وقد امتدت مشاركة المرأة المصرية فى الحياة السياسية فى عهد سعد زغلول إلى المجال الاقتصادى أيضاً، وقد لا يعرف الكثيرون الدور الفعال الذى قامت به هدى شعراوى فى تأسيس بنك مصر امتداداً لسياسة المقاطعة التى نادت بها.فى العشرينات كانت تعرف طلعت حرب جيداً فقد كان وكيل دائرة شقيقها عمر باشا سلطان، ووقفت إلى جنبه فاكتتبت فى البنك ب ٢٥٠ سهماً من أسهم البنك لكى تكون قدوة للسيدات، ثم راحت تزور السيدات المصريات الثريات فى بيوتهن وتدعوهن لشراء أسهم البنك.ويقال أن طلعت حرب عبر عن امتنانه بموقف هدى شعراوى الرائع بأن عرض عليها أن تكون عضواً لمجلس إدارة البنك وبمرتب مدى الحياة، ولكنها اعتذرت لمشاغلها الكثيرة.

إن مرحلة زعامة سعد زغلول للأمة المصرية تتسم بحيوية فى حياة المرأة المصرية لم يسبق لها مثيل، فقد شجعها

على أن تتفاعل بقوة مع الحركة الوطنية، وإن تخرج إلى الحياة العامة، وتتصدى للقضايا السياسية، وتشارك بالرأى والقرار والعمل فى كل الأنشطة السياسية المناوئة للاحتلال والمقاومة للتبعية. **وقد تجاوبت المرأة المصرية مع الفرصة التاريخية السانحة فلم تتقاعس ولم تتخاذل وإنما كانت فى مثل إقدام الرجال وشجاعتهم**، دون أن تقل عنهم حماساً ووطنية. وساهمت منذ ذلك الوقت بقدر وافر فى خدمة بلدها اجتماعياً وسياسياً وثقافياً. وكما أثرت مشاركة المرأة فى الحركة الوطنية على مسيرة الثورة، تأثرت هى بها، وبدأت تثور على الظلم والقهر وتتطلع إلى الحرية الشخصية والكرامة، وقفزت خلال ذلك قفزة واسعة من ظلالم الحريم إلى نور المواطنة الكاملة.

وإذا كان المؤرخون والاجتماعيون يضعون اليوم معياراً أساسياً لتقييم الزعماء والمفكرين والأدباء والفنانين فى العالم كله، هو نظرتهم إلى المرأة وما قدموه لها، فإن علاقة الزعيم الراحل سعد زغلول بالمرأة فى عصر أتسهم بتجاهلها وتهميشها إلى أقصى حد، تجعله من أجل الزعماء الوطنيين وأرفعهم قيمة وشأناً.

سعد زغلول والتعليم والتربية الوطنية

كلمة الأستاذ / أبو صالح الألفى
وكيل وزارة التربية والتعليم الأسبق





الأستاذ أبو صالح الألفى

أجد من واجبى أن أحيى الجمعية الخيرية الإسلامية، متمثلة فى قيادتها، والتى نجتمع اليوم فى رحابها لإحياء ذكرى علم من أعلام مصر هو سعد زغلول، الذى قاد ثورة ١٩١٩ لتحقيق الاستقلال، وتحمل فى سبيل ذلك ما تحمل، هو ومجموعة من رفاقه الرواد.

هذه الجمعية التى امتد نشاطها الخيرى لأكثر من مائة علم، بهدف المساهمة فى النهوض بالمجتمع، عن طريق نشر التعليم والبر بالفقراء ورعاية المسنين وغيره. ولا شك أن هذا النجاح الدائم للجمعية مرده إلى الأهداف الإنسانية للجمعية، والصفوة من الشخصيات المصرية الذين قادوا هذا النشاط خلال تاريخ هذه الجمعية العريقة.

واحتفالية هذا العام، يدور الحديث فيها حول الزعيم الخالد سعد زغلول عضو مجلس إدارة الجمعية منذ نشأتها سنة ١٨٩٢

والجهود النضالية الفائقة والمخلصة التى بذلها هذا الزعيم طوال حياته ، بالتعاون مع مجموعة من الرفاق، وتحمل فى سبيل ذلك ما تحمل، لتحقيق الاستقلال لمصر والنهوض بها فى جميع نواحى الحياة.

لمحة تاريخية:

كانت الحملة الفرنسية الاستعمارية على مصر فى آخر القرن الثامن عشر ومن رافقها من كبار العلماء، الذين وضعوا موسوعة "وصف مصر"، كانت سبباً فى إيقاظ روح الوطنية المصرية والنضال الشعبى، من خلال علماء الأزهر الشريف. وفى الوقت نفسه كانت إطلاله على منجزات العصر الحديث العلمية. ثم تولى حكم مصر، بعد انسحاب الحملة الفرنسية، محمد على، وكان هدفه الاستقلال بحكم مصر، وأن تكون قادرة على مواجهة الدول الغربية التى أوقفت توسعاته.

وكان إسراف أغلب الحكام من أسرة محمد على، وفسادهم، سبباً لقيام ثورة الجيش المصرى بقيادة عرابى، ثم هزيمته فى موقعة التل الكبير ١٨٨٢، بسبب ما واجهه من خيانة، وما ترتب على ذلك من الاحتلال البريطانى، وكانت سياسة المستعمر تستهدف تحجيم التعليم الوطنى للتمكين من النفوذ الأجنبي.

كل هذا أوجد مناخاً خاصاً للوطنيين المصريين، وأتاح للصفوة منهم، أن يقودوا حركة نضال وطنى، استهدافاً للحرية والاستقلال، ومن خلال الإصلاحات اللازمة لنشر التعليم، وتحقيق الديمقراطية والحرية والعدالة الاجتماعية.

هذه الظروف، غير العادية ، التى عاشتها مصر فى هذه المرحلة من تاريخها قبل الاحتلال البريطانى وأثنائه، أثرت تأثيراً كبيراً فى تكوين الأجيال التى عاشت هذه الأيام.

سعد زغلول نشأته ومقومات تكوينه الثقافى والوطنى

ولد سعد زغلول فى قرية إبيانه مركز فوه / مديرية الغربية فى يوليه١٨٥٧، وكان والده إبراهيم زغلول من أعيان القرية، وعمدتها، وتوفى الوالد وسعد فى السادسة من عمره، فكفلته والدته مريم بركات، ووجدت الأسرة النجابة والذكاء فى سعد، فألحقته بمكتب القرية ليتعلم القراءة والكتابة ويحفظ القرآن الكريم، تمهيداً لاستكمال تعليمه بالأزهر.

ودخل سعد الكتاب وهو فى السادة من عمره، وانتهى منه وهو فى الحادية عشر، فحفظ القرآن حفظاً جيداً؛ ثم تردد نحو سنتين أو ثلاث بين رشيد ومطوبس والجامع الدسوقى لاستكمال دراسة أصول التجويد وعلم النحو، ثم أوفد إلى الأزهر الشريف فى القاهرة، وكان قد بلغ ١٤ عاماً.

التحق سعد بالأزهر فى عام ١٨٧١، وكان شيخ الأزهر فى ذلك الوقت الشيخ محمد العباسى المهدى الذى تميز عصره بالتجديد، وفى عصره وضع نظام لامتحان الطلاب ومنحهم إجازة العالمية. كما وفد إلى مصر فى نفس العام السيد جمال الدين الأفغانى، صاحب الدعوة الجريئة للتحديث والتحرر الوطنى، ويعاونه فيها صديقه الشيخ محمد عبده.

واستجاب سعد الطالب الأزهرى لهذه الدعوة التى وجدت هوى فى نفسه، واندفع فيها اندفاع الشباب المتحمس، غير مبال بالعواقب، فألف جماعة من زملائه الطلاب للدعوة للإصلاح، وكتب منشوراً علقه ليلاً على أحد أعمدة المسجد، يشرح فيه مواضع الخلل ووسائل الإصلاح.. وثابر سعد على حضور دروس الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغانى. ومما يذكر أن السيد جمال الدين الأفغانى طلب من تلاميذه كتابة موضوع عن "الحرية" فأجاد سعد زغلول فى كتابته مما دعا أستاذه أن يثنى عليه قائلاً: "مما يدل على نشأة الحرية فى مصر أن يجيد فى الكتابة عنها هذا الناشئ".

وفى عهد وزارة رياض باشا عهد إلى الشيخ محمد عبده الإشراف على تحرير صحيفة الوقائع المصرية، وإصدارها يومياً لتكون على وجه يستميل الناس لقراءتها، واحتاج الإمام إلى مساعدين له فى تحريرها فاختار مجموعة رفاق كان من بينهم سعد

زغلول الذى عين فى القسم الأدبى فى صحيفة الحكومة، وكان ذلك حوالى أكتوبر ١٨٨٠م.

وقد حرصت الجريدة على أن يكون الحديث عن التعليم من اهتماماتها لأن التعليم الجيد يكون مؤشراً بمستقبل جيد للأمة. وظهرت مقالات فى الوقائع تنتقد نظارة المعارف، وتكشف عيوب التعليم، وما ينبغى أن يؤخذ به من وسائل الإصلاح. وأغضبت هذه المقالات ناظر المعارف، فى ذلك الوقت، على باشا إبراهيم، وإشتكى لرياض باشا رئيس الوزراء، وإنتهى الأمر إلى تكوين مجلس أعلى للمعارف وكان الشيخ محمد عبده فيه ممثلاً للوقائع.

كان لسعد أسلوبه المميز فى كتاباته فى صحيفة الوقائع، سواء فى الموضوعات الأدبية أو فى الموضوعات الى ينتقد فيها أحكام المجالس، وتلخيصها والتعقيب عليها، مما أتاح لسعد التمرس فى النقد القانونى والسياسى، وفهم مباحث القانون، وما يقابله فى الشريعة. ولما ظهرت كفاءته فى هذا الميدان نقل فى ٣ مايو ١٩٨٢ إلى وظيفة معاون بوزارة الداخلية، ثم على وظيفة ناظر لقلم قضايا الجيزة، وكان ذلك فى ديسمبر ١٨٨٢، وهذه الوظيفة أشبه بوظيفة القاضى، إذ أن من مسئوليتها إصدار الأحكام فى كثير من المواد الجزئية.

وهكذا نرى أن القدر والمشيئة الأهلية جعلت تلك الأيام فاصلاً بين عهدين فى حياة سعد زغلول، بل وفى تاريخ مصر

الحديث والنضال الوطنى نقل من "الأزهر الشريف" إلى الوظائف الحكومية، ومن ثم من لبس العمامة إلى لبس الطربوش، ومن دارسة "العلوم الدينية" إلى العلوم القانونية.

وهبت الثورة العرابية واشترك فيها سعد زغلول كما اشترك أساتذته وبعض زملائه، وحوكم الإمام الشيخ محمد عبده، وحبس ثلاثة شهور، ونفى خارج مصر ثلاث سنوات ، كما خسر سعد زغلول وظيفته، ورُصدتْ حركاته من الأجهزة المختصة بذلك، وأضطر سعد للعمل بالمحاماة، ولمع أسمه فيها، وأصبح اسم سعد على كل لسان فى هذا الميدان.

وبعد مضى نحو ٩ سنوات فى المحاماة عرضت عليه وظيفة نائب قاضى فى محكمة الاستئناف فقبلها، وكان ذلك فى علم ١٨٩٢. وفى هذا العام اشترك سعد مع مجموعة من الرواد فى تكوين الجمعية الخيرية الإسلامية بهدف إنشاء المدارس لتعليم أبناء الفقراء بالمجان، إلى جانب الرعاية الصحية والاجتماعية.

ووجد سعد أنه من الضرورى أن يستكمل الدراسات القانونية اللازمة للقاضى، فدرس اللغة الفرنسية، كما درس العلوم القانونية لمدة ثلاث سنوات وحصل على الإجازة عام ١٨٨٧بدرجة متفوقة. وفى فبراير ١٨٩٦ تزوج صفية كريمة مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء.

وقد حرص سعد فى عمله أن يصـــون كرامـــة القـــاضى، فاستنكر من وزارة الحقانية أن تعلن خطأ القاضى فى رسائل دورية توزع على جميع المحاكم ببيان الخطأ وتصويبـــــه، حســـبما تـــراه الوزارة، فعدلت الحقانية عن هذا الأســـلوب بـــالتدريج واسـتبدلته برسالة سرية ترسل للقاضى شخصياً.

وأيد سعد زغلول مصطفى كامل وعلى يوسف وغيرهمـــا من الوطنيين من كتاب الصحافة فيما التزموا به فى كتاباتهم مـــن إيقاظ الأمة، ورفع صوتها فى المناداة بالاستقلال، والدفـــاع عـــن الحرية، والنهوض بالتعليم، كما أيد سعد زغلول قاسم أميـــن فـــى دعوته لتحرير المرأة.

ولما هبت فى البلاد الدعوة إلى إنشاء الجامعة المصريـــــة، كان سعد زغلول أول المتبرعين لها؛ **ومن منزله صدر منشـــورها الأول الموجه إلى الأمة، وكان ذلك فى يوم ١٢ أكتوبـــر ١٩٠٦، ومما جاء فى هذا المنشور:** "انتهت الأمة إلى أن تفهم تمام الفـــهم أن طريقة التعليم ناقصة، ودائرته ضيقة، تقف وتنتهى بالطالب قبـــل بلوغ الغاية، ونجد أن أوروبا انحصرت فيـــها المعـــارف الســـامية والحقائق العلمية الرفيعة والاختراعات الحديثة، والتجارب والبحوث التى طالما شغلت عقول كبار العلماء ولا يصل الينا منها إلا صداهـا الضعيف وجاء فى المنشور أيضاً "إن الذين يشعرون منـــا بنقـــص وقصور التعليم عندنا يرون أنه من الضرورى أن يتقدم التعليم، لأن

أمتنا لا يمكن أن تعد فى صفوف الأمم الراقية لمجـــرد أن يعــرف أغلب أبنائها القراءة والكتابة".

نظارة المعارف:

عاد اللورد كورمر من إنجلترا بخطة جديدة، بعد الضجـــة الكبرى التى خلفتها حادثة دنشواى، فى ١٣ يونيه ١٩٠٦، وكـــانت تميل هذه الخطة إلى إظهار الاعتراف بالوطنية المصريـــة، وحـــق المصريين فى حكم بلادهم. وكان سعد زغلول قـــد أمضـــى فـــى وظائف القضاء نحو ١٤ عاماً – مـــن عـــام ١٨٩٢حتـــى ١٩٠٦، وكان اللورد كرومر يعرف سعد زغلول من تقابلـــهما أحيانـــاً فـــى صالون الأميرة نازلى فاضل، كما كان يسمع الثناء عليه من الشـــيخ محمد عبده، ويعلم ما أشتهر به في القضاء مـــن الجـــد والنزاهـــة وحسن الدارية. ومن أجل ذلك أيد تعيين ســـعد نـــاظراً للمعـــارف، اجتذاباً للعناصر الوطنية – بعد حادث دنشواى– هـــذا وقـــد رفـــع اللورد كرومر مصلحة التعليم ، (والتى كانت تتبع نظارة الأشـــغال)، إلى نظارة مستقلة، وشغل سعد زغلول وظيفة ناظر المعارف فـــى ١٩٠٦/١٠/٢٨. ومما يستحق الذكر أن اللـــورد كرومـــر عندمـــا انتهت خدمته فى مصر وفى خطبة الوداع التى ألقاها مناسبة ســـفره قال "أن سعد زغلول رجل قدير، وشجاع فى عقيدته، وقد علمنـــى كيف احترمه..".

وقد رحبت جريدة المؤيد بتعيين سعد زغلول وزيراً للمعارف، وأثنت على مواقفه الوطنية وعدله وصدقه. أما جريدة اللواء فبعد أن سجلت ارتياحها لهذا التعيين فى ضوء تاريخ سعد الوطنى قالت متسائلة: "هل سيكون كبقية الوزراء أمره وأمر المعارف فى يد المستشار الإنجليزى دنلوب"!!

وكان من أبرز صفات سعد ومكونات شخصيته التى تأكدت بعد شغله موقع ناظر المعارف، اهتمامه بكل ما من شأنه أن ينمى الشعور الوطنى، والحمية المصرية، وأن هذه الصفات لا تنمو إلا من خلال تعليم وطنى كفء.

جهود سعد وإنجازاته فى نظارة المعارف:

تولى سعد نظارة المعارف والسيطرة الكاملة فيها للمستشار الإنجليزى دنلوب وأعوانه من الإنجليز والفرنسيين، وكان المصريون الذين يعملون فى الوزارة يعلمون أن مستقبلهم فى يد المستشار، يبقى من يشاء ويعزل من يشاء.

وقد حصر الموظفون الإنجليز فى نظارة المعارف على إفشال تجربة أن يكون وزير التعليم مصرياً، وبخاصة أن كل المسئوليات فى يد المستشار دنلوب. ولكن سعد زغلول الوزير المصرى الوطنى كان يحرص على أن يحقق الآمال المعقودة على التعليم، والنهوض به فى كافة مراحله ومجالاته، فمارس مسئولياته

المنوطة به بجدية وإخلاص، فكان يحرص على أن يستدعى الموظفين المصريين والإنجليز إلى مكتبه، ويلقى إليهم تعليماته التى يحتاج إليها العمل، فإذا أطاع الموظف ونفذ المطلوب كان بها، وألا فإن العقاب ينتظره، سواء كان هذا العقاب إنذار أو نقل أو تغيير الوظيفة.. وبدأ يسيطر على الوزارة وموظفيها.

ولم يقتصر اهتمام سعد وحرصه على أن يسير العمل داخل ديوان الوزارة طبقاً للمصلحة الوطنية التى يراها فقط، بل امتدت اهتماماته إلى المدارس أيضاً، ومن أمثلة ذلك أن الناظرة الإنجليزية لمدرسة السنية للبنات فصلت تلميذة من المدرسة بذنب لا يستحق الفصل، وعندما درس الوزير شكوى هذه التلميذة المفصولة أمر بإعادتها إلى مدرستها، ولكن الناظرة رفضت تنفيذ أمر الوزير، فأمر الوزير بوقف الناظرة والتحقيق معها، وقامت ضجة حول هذا الموضوع، وتناولته الصحف الإنجليزية التى تصدر فى مصر والتى تصدر فى إنجلترا، وكان من نتيجة التحقيق مع الناظرة توقيع جزاء بسيط عليها، ولكن الوزير نقلها إلى مدرسة أخرى وإنتهى أمر هذه الناظرة إلى أنها قدمت استقالتها.

وكان سعد يحرص على تخريج الاخصائيين المصريين فى فروع المعرفة، فأعان الجامعة الناشئة بما استطاع من مال، كما أرسل البعثات إلى المعاهد الأوربية، وكان يتحرى بنفسه صفات

الوطنية والأخلاق الفاضلة فى المبعوثين، وكان فى الأغلب الأعم يشترك بنفسه فى الاختبارات والمقابلات الشخصية مع المبعوثين.

الزيارات الميدانية للمدارس:

كان سعد زغلول يرى أهمية كبيرة فى متابعة النشاط التعليمى، لذلك حرص على أن ينظم زيارات ميدانية للمدارس فى مختلف أنحاء مصر، وبرفقته بعض المسئولين فى الديوان والمديريات، واهتم بصفة خاصة بزيارة المكاتب، ومدارس إعداد معلمى الكتاتيب.

ولم تكن زيارات سعد للمدارس زيارات شكلية، وإنما كان يزور الفصول ويناقش التلاميذ للتعرف على مستويات التحصيل الدراسى، ومن أمثلة هذه الزيارات زيارته لكتاب سليم كاشف فى أسيوط فى ١٩٠٧/١/٥ وسأل أطفال السنة الأولى:- شجرة عليها ١٥ عصفور وقف صياد أمامها وأطلق على العصافير بندقيته فأوقع عشرة عصافير، فكم عدد العصافير الباقية على الشجرة؟ وأجاب تلاميذ الفصل إجابة صحيحة حسابياً قائلين خمسة، ولكن وقف تلميذ وخالف جميع تلاميذ الفصل قائلاً للوزير لا . لا. لم يبق على الشجرة ولا عصفورة. وقد أعجب الوزير بهذه الإجابة لأنها تكشف عن ذكاء فطرى وفطنه لدى هذا التلميذ، وأمر أن يلحق هذا التلميذ بالمدرسة الابتدائية مجاناً، وكان التعليم فى المدارس

الابتدائية بمصروفات، لا يقدر عليها الفقراء من عامة الشعب. واحتدمت الأزمة بين الوزير والمستشار دنلوب، على أساس أن هذا القرار يخالف اللوائح، ووصل الموضوع إلى اللورد كرومر، ولكن سعد بمنطقة السليم وقدراته انتصر فى هذه المعركة، وقد أوضح للورد كرومر أن ضمن إيرادات الوزارة ما يصل إليها من الأوقاف الخيرية الموقوفة على التعليم.. **وكان اسم هذا الطفل الموهوب: "إسماعيل القبانى" الذى أصبح فى مستقبله من أبرز رجال التربية المصريين وتقلد وزارة المعارف، وكانت مدرسته التربوية فى طريقة التعليم عن طريق النشاط، لها وزنها العالمى.**

من منجزات سعد فى التعليم الوطنى:

- نقل التعليم باللغة الإنجليزية إلى التعليم باللغة العربية، ولم يكن ذلك بالأمر السهل، لأن هذه الخطوة وجدت مقاومة من القوى الاستعمارية الحاكمة، كما أنها تحتاج إلى عمل جاد ومتواصل لإعداد الكتب والمدرسين اللازمين.
- وحرصاً على تمصير وظائف التدريس الثانوية توسع فى اختيار المدرسين المصريين الذين يصلحون لشغل وظائف وكلاء للمدارس تمهيداً لشغلهم وظائف النظار التى كانت قاصرة على الإنجليز. ولترسيخ هذه السياسية إهتم بمدرسة المعلمين العليا ومناهجها.

- إهتم بمدارس المعلمات لتخريج معلمات لتغطية احتياجات مدارس البنات الجديدة، فأضاف إلى مدرسة المعلمات الأولية ببولاق التى أنشئت ١٩٠٣ أربع مدراس أخرى.
- الاهتمام بمدارس إعداد معلمى الكتاتيب، وحسن اختيارهم وزيادة حصص اللغة العربية لهم. وإعطاء شهادة صلاحية التدريس لمن يتمون دراستهم بهذه المدارس ، بعد أن يمضوا فى التدريس سنتين، بتقارير جيدة من التفتيش المختص.
- ضاعف ميزانية الوزارة لمواجهة التوسع فى التعليم. كما زادت ميزانية البعثات عما كانت عليه ١٩٠٧، ١٦٠٠ جنيه إنجليزى إلى (١٠٤٢٧) فى عام١٩٠٩.
- حرص سعد زغلول على مكافحة الأمية بين أفراد الشعب، وكان يصف الأمية بأنها وصمة جاثمة على سمعة مصر، ومن أجل ذلك توسع فى فتح مدارس التعليم الأولى، **ولتحقيق هذه الغاية منح مجالس المديريات حق فرض ضريبة محلية تنفق منها على التعليم. وقد أنشأت مجالس المديريات مدارس ابتدائية فى كثير من المراكز، كما أكثرت من فتح الكتاتيب فى القرى، وتولت إعانة** الكتاتيب والمدارس الأهلية الصالحة، كما فتحت أقسام ليلية فى المدارس يتعلم فيها كبار السن.
- ومما يؤكد حرص سعد زغلول على تنمية الشعور الوطنى لدى الشباب استهدافاً لتأكيد هذه الوطنية وتشجيعها لدى الجماهير

بصفة عامة، وأن روح الوطنية لا تنمو بالتعليم المدرسى فقط، وإنما بالمشاركة فى المناسبات والأحداث الوطنية على اختلاف صورها. فلما خرج طلاب المدارس الثانوية والعليا للمشاركة فى تشييع جنازة مصطفى كامل حاملين أعلام مدارسهم، وساروا فى طليعة المشيعين، غضب دنلوب غضباً شديداً وطالب بإلغاء امتحانات ذلك العام الدراسى.. وفصل قيادات الطلاب الذين قادوا المظاهرة، ورفض سعد هذه المقترحات قائلاً "أن الطلاب عبروا عن حزنهم ووفائهم لقيادة وطنية فاضلة ومحبوبة؛ وهذا جزء لا يتجزأ من التربية الوطنية الصحيحة التى تحرص على ترسيخها وتنميتها وزارة المعارف.

سعد وزيراً للحقانية:

وفى أوائل ١٩١١ ألفت وزارة جديدة برياسة محمد سعيد باشا، ورغبة من الخديوى والمعتمد البريطانى فى إبعاد سعد زغلول عن نظارة المعارف، لإصلاحاته التى تستهدف التوسع فى التعليم، وتأصيل الوطنية، مما لا يوافق على الكثير منها لا الخديوى ولا المعتمد البريطانى، فنقل إلى وزارة الحقانية فى الوزارة الجديدة، وقد جرى العرف، فى ذلك الوقت- على اعتبار وزارة

الحقانية من وزارات الدرجة الأولى. وكان المبرر فى نقله وزيراً لوزارة الحقانية، أن سعد زغلول نشأ فى المحاماة ولمع فيها.

وقد حقق سعد زغلول، عندما تولى وزارة الحقانية، إنجازات كثيرة فقد أنصف القضاة، وأوقف نقد بعض أحكامهم فى مكاتبات ومنشورات علنية، كما عمل على تكوين نقابة للمحامين ترعى شئونهم وتحافظ على حقوقهم.

وتتابعت الخلافات بين سعد وسلطة الاحتلال منذ توليه وزارة الحقانية، ومن ذلك موقفه المعارض للقوانين الاستثنائية إلى أرد المعتمد البريطانى (جورست) أن يصدرها لتغليظ العقوبات على تُهَم التطاول على الخديوى أو سلطات الاحتلال، وكذلك العقوبات التى توقع على رجال الصحافة.. **ومن ذلك أيضاً اعتراض سعد على الاتجاه غلى التشدد فى محاكمة محمد فريد على ما جاء فى خطابه الذى ألقاه فى الجمعية العمومية للحزب** الوطنى المنعقدة فى ١٩١٢/٣/٢٢. كذلك الخلاف الذى نشب بين سعد والمعتمد البريطانى والخديوى بسبب رفضهم عزل الوصى على أملاك الأميرة صالحة هانم كريمة الأمير إبراهيم حلمى، بسبب ما أكتشفه سعد من عدم أمانة الوصى.

وإنتهى الأمر بتقديم سعد استقالته من وزارة الحقانية فى ١٩١٢/٣/٣١ وباستقالة سعد تنتهى مرحلة من حياته الوظيفية التى كان يلين فيها، فى بعض الأحيان فى الأمور البسيطة، ويشتد

ويتمسك فى الأمور التى تمس الحق العام أو القضايا الوطنية التى كان يراها سعد فى ذلك الوقت.

وعندما وضع لطفى السيد كتابه "قصى حياتى" سجل بعض مواقف سعد أثناء شغله لوزارتى المعارف والحقانية قال : "دخل سعد الوزارة بين تصفيق الأمة باسرها واستحسانها، وتمكن من وضع مستشار وزارة المعارف (دنلوب) عند حد القانون، وسوى بين الموظفين الأجانب والموظفين، وحقق آمال الآمة فى أكثر مما طلبت، فجعل التعليم باللغة العربية، وجعل لغة التعليم هى لغة الامتحان، وأعاد عهد البعثات، وأنشأ مدرسة المعلمين ومدرسة القضاء الشرعى التى صادف فى إنشائها صعوبات جمة، كانت محكاً لشجاعته الأدبية وقدرته الوزارية وحنكته السياسية".

سعد زغلول وكيلاً للجمعية التشريعية واهتماماته بالتعليم:

فى أول يوليو ١٩١٣ صدر قانون بإنشاء الجمعية التشريعية لتحل محل مجلس الشورى، ورشح سعد زغلول نفسه فى دائرتين – بولاق – والسيدة زينب، وكان من أهم عناصر برنامجه الانتخابى الذى تقدم به للناخبين، التوسع فى التعليم حتى يعم جميع فئات الشعب، ليتيسر لأبناء الفقراء الوصول إلى ما وصل إليه أبناء الأغنياء والقادرين.." . وقد كشفت نتيجة الانتخابات أن سعد تبوأ مركز الزعامة الوطنية مع قيام الهيئة البرلمانية، وانتخب سعد

وكيلا للجمعية، وعينت الحكومة أحمد مظلوم رئيساً، وعينت عدلي وكيلاً ثانياً.

وقامت الحرب العظمى في ١٩١٤/٧/١٤، ودخلتها إنجلترا، وأعلنت الحماية على مصر في ١٩١٤/١٢/١٨. واستمرت الحرب نحو أربع سنوات، وأعلنت الهدنة في ١٩١٨/١١/١١، وبدأ أعضاء الجمعية التشريعية، بما لهم من حق في تمثيل الأمة، المطالبة بالاستقلال وعلى رأسهم سعد زغلول الذى فكر في تكوين وفد يتحدث باسم مصر في مؤتمر الصلح. وتكون الوفد الذى يمثل كل المصريين ورئيسه سعد زغلول[1].

ووضع الوفد بعد تمام تكوينه لائحة حدد فيها أهدافه والتزاماته، وكان أولى بنود هذه اللائحة **(السعي بالطرق المشروعة لتحقيق الاستقلال التام لمصر)**.

وتوالت الأحداث، وتنبهت السلطة البريطانية في مصر، أن سعد زغلول ورفاقه يهددون نفوذ وخطط بريطانيا في السيطرة على هذه المنطقة وعلى قناة السويس، فاعتقل سعد زغلول، كما اعتقل

---

(١) حرصا من سعد زغلول على وحدة الصف المصرى، تم تكوين الوفد المصرى على الوجه الآتى : سعد باشا زغلول، على باشا شعراوى، عبدالعزيز باشا فهمى، محمد باشا محمود، إسماعيل باشا صدقى، حمدى باشا الباسل، عبداللطيف بك المكباتى، أحمد لطفى بك السيد، سينوت بك حنا، جورج بك خياط، محمود بك أبو النصر، محمد بك على، الدكتور حافظ بك عفيفى.

مجموعة من رفاقه وتم نفيهم إلى مالطة فى ١٩١٩/٣/٨- واشتعلت فى اليوم التالى ٩ مارس ثورة ١٩١٩ وما صاحبها من عنف بـالغ. واضطرت بريطانيا إلى الإفراج عن سعد ورفاقه فى أوائل أبريـل ١٩١٩ مع السماح لهم بالسفر إلى أوربا لعرض القضية المصريـة على مؤتمر الصلح.

ورأت السلطات البريطانية أن وجود سعد ورفاقـه يعرقـل تحقيقها لأهدافها،كما تبين لها من المفاوضات التى كانت تجرى فى هذه الفترة، فـأعيد اعتقـال سـعد ورفاقـه مـرة أخـرى فـى ١٩٢١/١٢/٢٥، وتم نفيهم إلى سيشل، كما أعتقل البعض الآخر فى معتقلات قصر النيل وألماظة.

وصدر تصريح ١٨ فبراير ١٩٢٢، وأعلن فؤاد نفسه ملكـاً على مصر ووضع الدستور، واستطاع مندوب سعد زغلـول فـى لندن أن يؤثر على أعضاء البرلمان البريطانى حتى قـامت ضجـة تحتج على اعتقال سعد زغلول.

وأفرج عن سعد ورفاقه، وعاد سعد إلى مصر فى سـبتمبر ١٩٢٣ وقوبل مقابلة فاقت كـل تصـور. وأجريـت الانتخابـات التشريعية فى ظل أحكام الدستور وفـاز سـعد والمرشـحين مـن أعضاء الوفد بالأغلبية المطلقة. وتولـى سـعد رياسـة الـوزارة، وصادف الكثير من الصعوبات على يد المعتمد البريطـانى اللـورد اللنبى ومن جانب الملك فؤاد، مما اضطره إلى الاستقالة. وعندمـا

ألقى سعد خطابه على النواب إبلاغاً لهم باستقالته، قال : **(إنه مستعد مع أصدقائه من أعضاء المجلس أن يؤيدوا كل وزارة تعمل لصالح البلاد).**

وقد أسفرت انتخابات ٢٢ مايو سنة ١٩٢٦ عن انتخاب ١٦٥ عضواً من حزب الوفد و ٤٥ من باقى الأحزاب. والمستقلين. غير أنه تحت ظروف سياسية حركها الإنجليز قوامها اتهام الوفديين بقتل السردار لى ستاك، قبل سعد زغلول زعيم الأغلبية أن يؤلف عدلى يكن الوزارة، وانتخب سعد رئيساً لمجلس النواب.

على أن وزارة عدلى، صادفها الكثير من الصعوبات، فتولى رياسة الوزارة ثروت. ومع ذلك استمرت الأزمات، لأن الإنجليز يحرصون على أن يزداد نفوذهم وتتسع صلاحياتهم.

وفى مرض مفاجئ، انتقل سعد زغلول إلى رحاب الله فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧. رحمه الله رحمة واسعة واسكنه فسيح جناته، فقد كان زعيماً وطنياً موهوباً وملهماً، فاستطاع أن يبث روح الوطنية فى جميع فئات الشعب المصرى وأن يوقظه ويجمعه حول الوطن والتطلع إلى التقدم الحضارى والاجتماعى.



سعد زغلول ابن الأزهر

كلمة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة
عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

تمهيد :


الدكتور محمد عمارة

كثيرون هم الزعماء والقادة الذين أنجبتهم مصر، والذين فتح الشعب لهم أبواب العقول والقلوب.. غير أن سعد زغلول قد تميز وامتاز من بين هؤلاء الزعماء والقادة بأنه لم يكن زعيماً لنخبة أو صفوة، ولا قائداً لحزب أو طبقة، ولا فقيهاً لمذهب أو منظراً "لإيديولوجية" ..

وإنما كان القائد المحبوب- وليس فقط المقبول- من الأمة والكافة والعامة والجمهور، على إختلاف مذاهب وطبقات وديانات الكافة والجمهور.. لقد فتحت له الأمة عقولها،وأسكنته فى قلوبها، واحتضنته فى ضمائرها.. ورأت فيه "غزال البَرّ" فتطلعت إلى "عين الشمس" كى تظلله فى الغدوات والروحات!

وكما علقت عليه الأمة آمالها، فلقد منحته الحب والاحترام معاً، بل وكانت تخاف عليه من كل سوء، وتغار عليه من المنافسين، فضلاً عن الخصوم.

لقد تنازعت انتسابه إليها وانتسابها إليه كل الطبقات والتوجهات والديانات .. المسلمون والنصارى.. المثقفون والعامة.. المعممون والمطربشون.. الطبقات "العليا" والفلاحون والعمال- "الصنايعية".. حتى لقد افتخر هو بانتمائه إلى "الرعاع"!، فقال وهو يخطب فى العمال **"إننى أفرح كثيراً، وأسر كثيراً، كلما شعرت أن هذه الحركة- (الثورة.. والنهضة) - ليست فيما يسمونه بالطبقة العالية فقط، بل هى منبثة أيضاً وعلى الأخص فى الطبقة التى سماها حسادنا "طبقة الرعاع" ! وأفتخر بأنى من الرعاع مثلكم".. فانخرط العمال فى هتاف متكرر" ليحيا سعد زعيم الرعاع"** (١).

ولعل سعداً كان الزعيم الوحيد بين زعماء مصر الحديثة، الذى تعلقت به الجماهير التى لا علاقة لها بالسياسة أو الحزبية، فتحالفت العواطف مع الوعى على جعل الفطرة الشعبية تتعلق به وكأنه أسطورة من الأساطير فى حياة هذه الجماهير.

لقد ولدتُ - بالريف- بعد وفاة سعد زغلول بأربع سنوات، ولقد وعت ذاكرتى مكانة سعد زغلول كبطل أسطورى تُحكى حوله الكرامات وخوارق العادات، فى مناخ تطغى عليه الأمية، ولا يوجد فيه تنظيم لحزب الوفد، بل لا توجد فيه سوى فطرة الناس البسطاء. فحتى أصوات الحيوانات تهتف "بحياة سعد"!!.. وحتى أوراق

---

(١) محمد إبراهيم الجزيرى، سعد زغلول : ذكريات تاريخية، طبعة كتاب اليوم بالقاهرة، ص٨٤.

المزروعات تنبت وتتفتح ومكتوب عليها "يحيا سعد"!!.. وذلك فضلاً عن الأغانى الشعبية التى تعبر – بالحب لسعد زغلول– عن مكانته المتفردة فى قلوب الكافة من الناس.

ولعل هذه الحقيقة، من حقائق تميز وامتياز زعامة سعد زغلول، أن تجد من الدارسين الدارسات التى تكشف عن أسبابها وأسرارها. فهو لم يكن الفلاح الوحيد الذى يقود الأمة.. ولم يكن الأزهرى الوحيد الذى تتعلق به آمال الكافة.. ولم يكن السياسى الوحيد الذى يتصدى للاحتلال والاستعمار... وإنما كان المتفرد بين هذه الزعامات بالمكانة التى خصصته بها الأمة من بين مواكب الزعماء والقادة الذين أنجبتهم مصر الولود.

أما هذه الصفحات المحدودة، فإن مقاصدها المحددة هى الكشف عن الأثر الإسلامى للتعليم الأزهرى على هذا الزعيم العظيم.. الشيخ سعد زغلول باشا، أبن الأزهر الشريف.

نشأة سعد زغلول :

لقد ولد سعد زغلول ١٨٥٧– ١٩٢٧م) فى قرية " إبيانة"، مركز "فُوَّة" ، محافظة "الغربية" – "كفر الشيخ" حالياً، إبان حكم الخديوى سعيد لمصر (١٨٢٢–١٨٦٣م)، وكانت مصر– يومئذ ولاية لها استقلالها الذاتى فى إطار الإمبراطورية العثمانية.

وكان والده – إبراهيم زغلول– عمدة القرية، فوهبه للعلم الدينى، والدراسة بالأزهر الشريف.. .

- فدخل سعد كُتّاب القرية، وهو فى السابعة من عمره، وقضى به خمس سنوات، حفظ فيها القرآن الكريم.
- وفى سنة ١٨٧٠م عُينّ أخوه الأكبر "الشناوى أفندى" رئيساً لمجلس مركز "دسوق" – المجاور لمركز "فُوّة" – فاصطحب الشناوى أفندى معه أخاه سعداً، وألحقه "بالجامع الدسوقى" – التابع للأزهر الشريف فبدأ فيه تجويد القرآن الكريم.

وأذكر أننا ونحن طلاب "بمعهد دسوق الدينى الابتدائى" بين سنة١٩٤٥، وسنة ١٩٤٩م، أننا كنا نمر على منزل ظهرت عليه آثار القدم، قالوا لنا، إنه المنزل الذى كان يسكن فيه سعد زغلول، عندما بدأ رحلته الدراسية فى الأزهر الشريف بمدينة "دسوق".

- وفى سنة ١٨٧٣م انتقل سعد زغلول من الدراسة "بالجامع الدسوقى" إلى الدراسة بالجامع الأزهر، بالقاهرة.. وبدأ تلقى دروس الفقه– على مذهب الإمام الشافعى– وفى "زاوية العدوى" – بالقرب من الجامع الأزهر– ثم انتقل إلى الدراسة فى ذات الجامع الأزهر..

وكان الطالب ، فى ذلك التاريخ، هو الذى يختار شيخه والحلقة التى يتلقى فيها دروسه.. ويختار أيضاً العلوم والكتب التى يريد مواصلة دراستها والتخصص فيها.

- وفى ذلك التاريخ، كان جمال الأفغانى (١٢٥٤- ١٣١٤هـ ١٨٣٨- ١٨٩٧م) قد استقر به المقام فى مصر، وانتظمت دروس علمه وتجديده وثوريته فى منزله- قريباً من الجامع الأزهر- .. وكان الشيخ محمد عبده (١٢٦٦- ١٣٢٣هـ ١٨٤٩-١٩٠٥م) الطالب الأزهرى، الذى يكبر سعد زغلول بعشر سنوات، قد أصبح أنجب تلاميذ جمال الدين الأفغانى، حتى كان - قبل تخرّجه من الأزهر- يعقد حلقة درس بالجامع الأزهر- يعيد فيها على الطلاب ما سمعه من أستاذه الأفغانى، من علوم وفنون كانت غريبة عن المناهج الأزهرية فى ذلك الحين.. فتتلمذ عليه - فى هذه الحلقة- الطالب - سعد زغلول، وقادته هذه التلمذة إلى دروس موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني..

وكما كان محمد عبده أنجب تلاميذ الأفغانى، وأقربهم إلى قلبه، أصبح سعد زغلول أنجب تلاميذ محمد عبده، بل لقد صار محمد عبده بالنسبة له أبا وشيخاً ورائداً ومربياً..

- وعلى يدى جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، أصبح "الشيخ سعد زغلول" طالب الأزهر - واحداً من دعاة الإصلاح، وواحداً من الذين تعلموا فن الكتابة وصناعة الإنشاء وتحرير المقالات.. وبتشجيع من الأفغانى نشرت له صحيفة "التجارة" التى كانت إحدى الصحف التى أصدرها الأفغانى "بالإسكندرية"

.. ورأس تحريرها "أديب أسحق"، و"سليم نقاش"، (١٣٠١هـ ١٨٨٤م)- نشرت للشيخ سعد مقالاً عن "الحرية" علق عليه أستاذه الأفغاني فقال : "**إنه مما يدل على أن الحرية ناشئة في مصر أن يجيد الكتابة عنها هذا الناشئ" - سعد زغلول-** فكانت الحرية هي الباب الذي ولج منه الشيخ سعد إلى عالم الإصلاح والإبداع !.

- ولأن هذا الحزب الإصلاحي، كان يُعَوِّل - في الدعوة الإصلاحية- على تجديد مناهج المؤسسة العلمية الأم- الأزهر الشريف - كطريق لإصلاح وتجديد دنيا المسلمين.. كتب الطالب الشيخ سعد زغلول "منشوراً" يدعو فيه إلى إصلاح الأزهر الشريف، ونسخ منه سبع نسخ، وعلّقها- ليلاً- على أعمدة الجامع الأزهر، ليقرأها الطلاب في الصباح!.

باكورة مؤلفات سعد كتابه "فقه الشافعية" :

ومع التحرير في الصحف.. والانخراط في الدعوة إلى الإصلاح: التعليمي.. والفكري.. والوطني.. توجه الطالب الشيخ سعد زغلول إلى حقل التأليف، فكانت باكورة تأليفه كتاباً في (فقه الشافعية).. ولقد طبع هذا الكتاب، ونفدت طبعته الأولى.. "وكان الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي (١٢٩٨-١٦٦٤هـ- ١٨٨١-١٩٤٥م) يحتفظ في مكتبه بنسخه منه، وذات يوم كان

لطفى السيد باشا (١٢٨٨-١٣٨٢ هـ ١٨٧٠-١٩٦٣م) يزور الشيخ المراغى بداره فى "حلوان" وجرى الحديث بينهما فى العلم والفلسفة والزعماء.. فقال لطفى السيد: إن بين الزعماء السياسيين نوابغ لو تفرغوا بعض الوقت للتأليف والإنتاج لأفادوا فائدة عظيمة..

وهنا ابتسم الشيخ المراغى، وقال له هل تعلم أن المرحوم سعد زغلول باشا ألّف كتاباً فى الفقه؟

فطلب لطفى السيد الاطلاع على هذا الكتاب، فقام الشيخ المراغى إلى مكتبته، وأحضر الكتاب، فتناوله لطفى السيد فى نهم، وقلّب صفحاته، وهو يقول: **عجيبة!..**

وأزاح لطفى السيد غلاف الكتاب وقرأ أسمه، وقد كتب ناشر الكتاب تحت عنوانه ما يلى: "**ألفه الفقير إلى الله تعالى الشيخ سعد زغلول، الشافعى المذهب ، من طلاب الأزهر الشريف**" (١).

العلاقة بين سعد وأستاذه الشيخ محمد عبده :

وبينما كان الشيخ سعد زغلول فى عام التخرج من الأزهر الشريف، وقبل أداء امتحان العالمية، تولى شيخه محمد عبده رئاسة تحرير صحيفة "الوقائع المصرية"، فترك الشيخ سعد الأزهر،

---

(١) الدكتور / محمد عبدالمنعم خفاجى، الأزهر فى الف عام، طبعة القاهرة، سنة ١٣٧٤هـ، جزء (٢) ٨، ٩..

وأصبح محرراً فى "الوقائع" منذ ٥ أكتوبر سنة ١٨٨٠م.. وفيها تجلت مواهبه فى الكتابة والتحرير .. ولقد استمر فيها شيخاً معمماً إلى ٣ مايو سنة١٨٨٢م، حين عُين- أيام وزارة محمود سامى البارودى باشا (١٨٣٩-١٩٠٤م) "معاونـاً" بنظـارة الداخلية، فأصبح الشيخ سعد "سعد أفندى" منذ ذلك التاريخ. وإن ظل فى نظر ولغة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده "الشيخ سعد" دائماً وأبداً..

وفى ٦ سبتمبر سنة ١٨٨٢م- إبان المقاومة الوطنية للغزو الإنجليزى لمصر- انتقل سعد زغلول إلى وظيفة "يا شمعاون"،وتولى نظارة قلم القضايا بمديرية الجيزة. وظل الموقع الأول، والوظيفة الأساسية "للشيخ سعد زغلول" هى وظيفة المريد والتلميذ لوالده وشيخه ومربيه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.. فانخرط معه فى الثورة العرابية، والمقاومة للغزو الإنجليزى، ونادى "**بالجهاد الدينى**" **ضد الإنجليز**.. ولعب دوراً فى نقل الرسائل بين محمد عبده وقيادة الثورة - بالقاهرة- وبين زعيم الثورة وقائد الجهادية أحمد عرابى باشا (١٨٤١-١٩٩١م) فى جبهة القتال.

وبعد هزيمة الثورة العرابية فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢م، نال سعد زغلول ما نال الثوار. ففصل من وظيفته فى ٢ أكتوبر سنة ١٨٨٢م وصدر بحقه قرار "الحرمان المدنى" .. فاتجه إلى العمل الحر، مشتغلاً بالمحاماة، وافتتح "مكتباً للدعاوى" .. ثم قبض عليه فى ٢٠ يونيه سنة ١٨٨٣م بتهمة عضوية جمعية سرية معادية

ومقاومة للاحتلال الإنجليزى أسمها "جمعية الانتقام"، وقضى فى السجن ثلاثة أشهر حتى برأته المحكمة لعدم ثبوت أدلة الاتهام.. ولقد أحرجت هذه البراءة سلطات الاحتلال، فعدلت عن قرار نفيه إلى السودان وإن نفت أستاذه وشيخه محمد عبده من البلاد.

وعندما فك الإنجليز سراح جمال الدين الأفغانى، فى منفاه بالهند- عقب هزيمة الثورة العرابية- فغادر الهند إلى أوروبا.. وكتب أثناء عبوره "قناة السويس" من ميناء "بور سعيد" .. رسالة إلى محمد عبده- فى منفاه ببيروت- بتاريخ ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٣م طالباً منه اللحاق به فى باريس.. **وفى هذه الرسالة أثنى الأفغانى على سعد زغلول، فقال : ".. وأثنى على الشابين الأديبين: السيد إبراهيم اللقانى والشيخ سعد زغلول.."** [(١)].

وطوال سنوات وجود محمد عبده بالمنفى، كانت الصلات والمراسلات قائمة ودائمة بينه وبين الشيخ سعد زغلول. وتشهد هذه المراسلات على مكانة سعد من الأستاذ الإمام ، وهى مكانة الإبن والتلميذ والمريد والساعد الأيمن والمؤتمن على الأسرار، الذى يعهد إليه محمد عبده بالخاص والعام من المهام والشئون.

وإذا شئنا نماذج من الرسائل الجوابية التى كتبها الشيخ سعد إلى أستاذه- وهو ببيروت- والتى تكشف عن مستوى هذه العلاقة

---

(١) الشيخ محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، طبعة القاهرة، سنة ١٩٣١م، جزء (١) ص٨٢.

– فهذه إحداها يبدأها الشيخ سعد ، مخاطباً شيخه محمد عبده بعبارة : "مولاى الأفضل، ووالدى الأكمل"، ويصف نفسه فيها بأنه : "خرّيج حِكَم الأستاذ الإمام، والناشئ فى نعمه.. وصنيع آدابه، والمحفوف بعنايته، والمشمول بعين رعايته".

ولقد كانت هذه الرسالة النموذج جواباً على أول رسالة كتبها محمد عبده من منفاه فى بيروت إلى سعد زغلول ونصها:

"من مصر ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٠٠ هـ/ مارس ١٨٨٣م إلى بيروت.

مولاى الأفضل، ووالدى الأكمل، أحسن الله معاده.

بعد تقبيل الأيدى الكريمة: قد ورد الكتاب الكريم على طول تشوقنا إليه، فتلوناه ووعيناه فى الفؤاد، وحمدنا الله تعالى على أن شرفتم تلك الديار سالمين، مبالغاً فى إكرامكم والاحتفال بكم من كرام أعيانها المسلمين، وأماجد نبهائها المؤمنين، جزاهم الله عن كل مصرى يعرف قدركم خير الجزاء.

ولهم منا معشر أتباعكم ومريديكم بما تقبلوك به من كريم الاحتفال، وعظيم الإحلال، السنة مرطبة بالثناء عليهم، وضمائر مطوية على مزيد احترامهم وفائق تعظيمهم.

صحتى البدنية معتدلة، أما فكرى فقد تولاه الضعف من يوم أن صدع الفؤاد بالبعاد، وتمثلت فيه بعد تلك الحقائق التى كنت تجلو مطالعها، معان نعرفها أوهاما يضيق بها الصدر ولا

ينطلق بردها اللسان، مخافة فوات مرغوب أو لحاق مكروه مما تعلمون.

توجهت إلى البيك صاحب تاريخ العرب [1]، وسألته إعارته فأجاب بأن محمود سامى [2] . أخذه منه وسافر ولم يرده إليه، ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام، ويقول إنه مستعد لخدمة جنابكم فى أى شئ تريدون حسياً أو معنوياً. وسأتحرى هذا الكتاب فى كتب سامى عند بيعها، فإذا وجدته فيها اشتريته وأرسلته فى الحال إلى حضرتكم أو أحضرته معى إن وافق ذلك استجماعى لوسائل السفر.

الحال العمومية على ما تركتها، غير أن الناس أخذوا فى نسيان ما فات من الحوادث وأهوالها، وقلت قالتهم فيها، وخفّت شماتة الشامتين منهم، وأصبح المادحون للإنكليز من القادحين فيهم، وبالعكس. والكثير يتوقع انقلاباً أصلياً، والله أعلم بما يكون.

رفعت تحيتكم لجميع من ذكرتم فى الكتاب تصريحاً وتلويحاً، فتقبلوها بمزيد المسرة والانشراح. يسلّم على جنابكم الصادق فى صداقته ومودته حسين أفندى وهو فى غاية من

---

(١) الإشارة إلى كتاب (تاريخ العرب وآدابهم)، تأليف "ادورد فنديك" وفيلبيدس بك قسطنطين".

(٢) الإشارة إلى محمود سامى البارودى باشا، الذى نفاه الإنجليز هو الآخر من مصر ضمن زعماء الثور العرابية.

الصحة والعافية، وقد عاد من الريف فراراً من شروره، آسفاً على ما وقع لجنابكم أكثر من أسفه على نفسه. الشيخ محمد خليل، والشيخ عامر إسماعيل، والشيخ حمادة الخولى، والسيد عثمان شعيب، والشيخ حسن الطويل ووالدى عبدالله وأخواى شناوى وفتح الله، وكثير غيرهم يقبلون يديكم، ويسلمون عليكم، ويقدمون مزيد تشكرهم لحضرات أولئك الكرام الأماجد الذين أحسنوا وفادتكم وأكرموا مثواكم، زادهم الله كرماً وكمالاً.

مولاى: ذكرت لحضرتك أن الضعف ألمّ بفكرى، فبالله إلا ما قوّيته بتواصل المراسلة، غير تارك فيها ما عودتنا على سماعه من النصائح والحكم التى نهتدى بها إلى سواء السبيل، ونتمكن بها من السير فى العالم المصرى الذى اختبرت حقائقه وعرفت خلائقه، وما يناسبها من ضروب المعاملة. وفقنا الله لمتابعتك، ولا أطال على بلادك مدة غيبتك، إنك إمامها وإن أقتدت بغيرك، ومحبها الصادق وإن لم تعرف بقدرك والسلام . ولدكم سعد زغلول.

وكنا نود ذكر بعض رسائله الأخرى، لولا ضيق المقام، وهى جميعاً ذات دلالة خاصة فى موضوعنا- تأثير الدراسة الأزهرية الشرعية على الشيخ سعد زغلول. فعلاوة على شهادة هذه الرسائل على قيام سعد زغلول بواجبات الإبن البار من والده- من مثل إرسال اللوازم المنزلية من القاهرة إلى بيروت عبر ميناء

الإسكندرية.. وحديثها عن اشتغاله بالمحاماة، وتحسن حالته المالية فإن فيها سطوراً كثيرة يتحدث فيها سعد زغلول عن عقائد إسلامية يدور حولها الجدل فى علم الكلام، وتصدر حولها الكتب، ويناقشها أهل السنة والجماعة.. من مثل عقيدة (خلق القدرة) ولعلها عقيدة المعتزلة فى خلق الإنسان لقدرته واستطاعته وأفعاله الاختيارية، وسعد زغلول يحكى ما دار بمصر يومئذ من جدل حول هذه العقيدة، ويطلب من أستاذه محمد عبده أن يكتب فى هذا الموضوع شرحاً كالذى سبق وكتبه على "شرح الدوانى للعقائد العضدية" (١) كما أن فيها حديثاً عن مقالات نشرها جمال الدين الأفغانى عن حال مصر والأمة وواجبات المرحلة لمواجهة هذا الذى حدث لمصر بعد الاحتلال..

وهكذا توالت المراسلات بين الأستاذ الإمام وبين الشيخ سعد زغلول، مفصحة عن المكانة الممتازة والمتميزة لسعد فى طليعة مدرسة الأستاذ الإمام وحزبه.. وهى مراسلات جديرة بدراسة خاصة، تحلل مضامينها، وتستخلص دلالتها، وتكتشف إضافاتها إلى تاريخ تلك الحقبة وما شهد من أحداث جسام.

---

(١) لقد حققنا نسبة التعليقات على شرح الدوانى للعقائد العضدية، إلى جمال الدين الأفغانى، وكان محمد عبده هو المدون لها ولم يكن قد تخرج بعد من الأزهر. أنظر تقديمنا للأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى، طبعة بيروت، سنة ١٩٧٩، ص١٥٥ – ١٦٦.

- كذلك، أرسل الأستاذ الإمام سنة ١٣٠٥ هـ سنة ١٨٨١م، من بيروت، مقاله عن الوحدة الوطنية فى مصر .. أرسلها إلى سعد زغلول، ليعيد نشرها فى الصحف المصرية..
- ومنذ عودة محمد عبده من المنفى إلى أرض الوطن- أواخر سنة ١٨٨٨م، سنة ١٣٠٦هـ- كان سعد زغلول فى طليعة المواطنين على حضور ندوته بمنزله فى ضاحية "عين شمس". كما كان محمد عبده هو صاحب اقتراح تعيينه نائب قاض فى محكمة الاستئناف سنة ١٨٩٢م.. **وكانت مؤهلات سعد زغلول حتى ذلك الحين هى مؤهلات "الشيخ سعد"، دراسته الشرعية الأزهرية، وخبرته العملية فى المحاماة، والتى تأسست هى الأخرى على دراسته الشرعية الأزهرية.. ذلك أنه لم يكن قد درس بعد الحقوق ولا حصل على "الليسانس" فيها، فلقد بدأ تعلم الفرنسية فى صيف سنة ١٨٩٢م وإلتحق بجامعة باريس فى أوائل سنة١٨٩٦، وحصل على ليسانس الحقوق منها فى يوليو سنة ١٨٩٧م.. فالأزهر- وثقافته الشرعية- هو الذى جعله من كبار المحامين، وهو الذى أهله للعمل بالقضاء.**

ثناء الأفغانى على سعد :

وكما تحدث جمال الدين الأفغانى عن محمد عبده، باعتباره أنجب تلاميذه، وأقربهم إلى عقله وقلبه ورغم الدور الريادى

والقيادى الذى نهض به الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥) فى حمل رسالة هذه المدرسة الإصلاحية إلى العالم الإسلامى - من خلال مجلة "المنار". وهو الدور الذى جعل الشيخ رشيد أبرز أركان "التوجه الدينى" لمدرسة الأستاذ الإمام.. فإن سعد زغلول- بشهادة الشيخ رشيد رضا نفسه- كان المتجلى لمدرسة الأفغانى ومحمد عبده ورائد "الجناح المدنى" فى هذه المدرسة الإصلاحية.. وبعبارة الشيخ رشيد: "**فلقد ظهرت روح الشيخين - (جمال الدين الأفغانى. ومحمد عبده) فى أعمال تلاميذهما.. ومن أشهرهم سعد زغلول.. الذى أصبح عميد الحزب المدنى للأستاذ الإمام وأقوى أركانه**" (١)..

وكما كانت الدراسة الأزهرية - الشرعية الفقهية.. والعربية والأدبية- هى المكون والمؤهل لسعد زغلول - المؤلف فى فقه المذهب الشافعى.. والداعية لإصلاح الأزهر.. والكاتب عن الحرية والشورى.. وداعية "الجهاد الدينى" ضد الاحتلال الإنجليزى لمصر والمحامى المبرز ونائب قاضى محكمة الاستئناف. كذلك كانت هذه الدراسة الأزهرية وثقافتها الشرعية، هى التى علّمت سعد زغلول "الاستقلال الفكرى"، الذى طبع شخصيته وكل مواقفه وقراراته وأفكاره فى كل ميادين الحياة التى عاشها وجاهد فيها، على تنوع وتعدد هذه الميادين.

---

(١) أنظر تاريخ الأستاذ الإمام، مرجع سابق، جزء (١) ص ١٣٦، ١٣٧.

ولقد تحدث هو- فى مقام الاعتراف بفضل الدراسة الأزهرية عليه- عن هذه الخصيصة من خصائص الدراسة الأزهرية التى كانت تتيح للطالب حرية اختيار الأستاذ والشيخ الذى يتتلمذ عليه، واختيار العلوم التى يتفقه فى دراستها.. وكذلك أثر صعوبة أساليب الكتب التى كانت تدرّس، وعمق القضايا الأصولية التى تحتويها هذه الكتب.. أثر كل ذلك فى تدريب الطلاب على امتلاك مواهب ومؤهلات "الغوص" وراء المعارف والحقائق والأفكار فى صبر ومثابرة وجهد وأناة.

تحدث سعد زغلول باشا، حديث المعترف بفضل هذه الدراسة الأزهرية على "استقلاله الفكرى"، فقال - وهو زعيم الأمة- بعد عودته من أوربا سنة ١٩٢١م- عندما ذهب إلى الجامع الأزهر، معترفاً بفضل الأزهر عليه.. وفضله الكثير فى ثورة سنة ١٩١٩م فخطب بالجامع الأزهر- حيث درس - فقال:

"جئت اليوم لأؤدى فى هذا المكان الشريف فرض صلاة الجمعة، وأقدم واجبات الاحترام لمكان نشأت فيه، وكان له فضل كبير فى النهضة الحاضرة. تلقيت فيه مبادئ الاستقلال، لأن طريقته فى التعليم تربى ملكة الاستقلال فى النفوس، فالتلميذ يختار شيخه، والأستاذ يتأهل للتدريس بشهادة من التلاميذ الذين كانوا يلتفون حول كل نابغ فيه ومتأهل له، يوجه إليه كل منهم الأسئلة التى يراها، فإن أجاب الأستاذ وخرج ناجحاً من هذا الامتحان كان أهلا لأن يجلس مجلس التدريس.

وهذه الطريقة فى الاستقلال جعلتنى أتحول من مالكى إلى شافعى، حيث وجدت علماء الشافعية فى ذلك الوقت أكفأ من غيرهم[1].

وجدير بالملاحظة أن هذا الاستقلال الفكرى، الذى جعل سعد زغلول– الطالب الأزهرى– يفضل المذهب الشافعى على المذهب المالكى– الذى هو الغالب على مسقط رأسه ومحيطها الجغرافى– بسبب تفضيله علماء المذهب الشافعى.. لم يؤثر عليه أن مذهب أستاذه وشيخه ومربيه محمد عبده كان المذهب الحنفى. فالاستقلال الفكرى كان ثمرة من أنضج وأعظم طرق التدريس الأزهرية فى ذلك الحين.

وعندما أصبح "الشيخ سعد" "سعد باشا"، وتولى "نظارة المعارف العمومية" ، تحققت على يديه إصلاحات جذرية، كانت بنوداً فى برنامج المدرسة الإصلاحية التى تبلورت من حول جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده..

سعد ومدرسة القضاء الشرعى :

فلقد أنشأ "مدرسة القضاء الشرعى" سنة ١٩٠٧م، لتكون – مع "مدرسة دار العلوم"، ديوان الإصلاح الدينى

---

(١) مذكرات سعد زغلول، تحقيق وتقديم الدكتور/ عبدالعظيم رضمان، طبعة القاهرة، سنة ١٩٨٧، جزء (١) ص٤٥.

والتجديد والاجتهاد فى علوم الشريعة الإسلامية وفى علوم العربية.. هذه المدرسة التى سبق ودعا إلى إنشائها سنة ١٨٨٧م منشئ "دار العلوم" فى سنة ١٨٧١م على باشا مبارك (١٢٣٩-١٣١١هـ ١٨٢٤-١٨٩٣م) لتكون أداة لتجديد وتقنين الفقه الإسلامى، حتى تقاوم الأمة- بهذا التجديد والتقنين- تغريب القانون وعلمنته.. وهو نفس المقصد الذى سعى إليه الإمام محمد عبده، عندما أراد إنشاء "القسم القضائى" فى الأزهر الشريف [١]. فلما تعذر إنشاء هذا "القسم القضائى" بالأزهر - لفرط حذر التيار المحافظ بين شيوخ الأزهر من أى تجديد، خوفاً من أن يخدم "التجديد" "التغريب"، أنشأ سعد زغلول هذه المدرسة- "مدرسة القضاء الشرعى"- لتحقق هذه المقاصد القومية.. وجعلها تحت نظر الشيخ حسونة النواوى (١٢٥٥-١٣٤٣هـ ١٨٤٠-١٩٢٥م) إبان مشيخته الثانية للجامع الأزهر، تحقيقاً للصلة بينها وبين المؤسسة الأم للعلم الإسلامى.. وجعل الدراسة الفقهية فيها على المذاهب الإسلامية المختلفة، وليس فقط للمذهب الحنفى- كما كان يريد الخديوى عباس حلمى الثانى (١٢٩١-١٣٦٣هـ ١٨٧٤-١٩٤٤م) - فحقق سعد زغلول بذلك مذهب أستاذه محمد عبده، الذى دعا إليه فى تقريره الشهير عن إصلاح القضاء الشرعى.

---

(١) أنظر تاريخ الأستاذ الإمام، مرجع سابق، جزء (١) ص ١٣٦، ١٣٧.

كذلك، رد سعد زغلول- "ناظر المعارف العمومية" بعض عدوان اللغة الإنجليزية على لغة القرآن الكريم فى المدارس الأميرية. وكتب فى مذكراته- بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٩٠٩م- يقول "**يجب أن تكون غاية عملى: جعل التعليم أهلياً، أى باللغة العربية فى المدارس المختلفة**".

وكذلك، أكثر من إنشاء الكتاتيب فى القرى والمدن، وضاعف الإعانات المالية المخصصة لها.

سعد وكتاب الشيخ على عبدالرازق (الإسلام وأصول الحكم) :

وإذا كان الأزهر الشريف قد قاد بواسطة علمائه وطلابه- معارك الدفاع عن الإسلام.. وإذا كانت المعارك الفكرية التى قادها علماء الأزهر وطلابه ضد كتاب (الإسلام وأصول الحكم)- الذى كتبه الشيخ على عبد الرازق (١٨٨٧-١٩٦٦م) سنة ١٩٢٥م وضد كتاب (فى الشعر الجاهلى) الذى كتبه الدكتور طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣م) سنة ١٩٢٦م- إذا كانت هذه المعارك قد غدت من أخطر وأشهر المعارك الفكرية للقرن العشرين، بل لقد ظلت محور أغلب معاركنا الفكرية حتى هذه اللحظات. فلقد كان سعد زغلول- زعيم الأمة.. ورئيس مجلس النواب- فى ذات الموقع الفكرى للأزهر وعلمائه، ضد محاولات على عبد الرازق "علمنه الإسلام" .. وضد جموح طه حسين للتشكيك فى بعض ما ورد

بالقرآن الكريم.. أى ضد أخطر التحديات التغريبية التى تواجه العرب والمسلمين..

وإذا كان العديد من علماء الأزهر الشريف قد كتبوا الكتب والدراسات والمقالات، وألقوا الخطب والمحاضرات فى تفنيد دعاوى صاحب "الإسلام وأصول الحكم، فإن رأى سعد زغلول فى هذا الكتاب كان أقسى من رأى كثير من هؤلاء الشيوخ العلماء.. ولقد أشار فى ثنايا نقده لهذا الكتاب إلى الأزهر الشريف، وإلى ثمرات العلم الذى تعلمه فيه، واستغرب جهل على عبد الرازق- الأزهرى – بهذا العلم الشرعى الذى قدمه الأزهر لطلابه عن شمول الإسلام للدين والدنيا، وللمرجعية الشرعية والمدنية جميعاً.

وجدير بالتنبيه أن سلطان العلم الشرعى على سعد زغلول كان أقوى من "اللعبة السياسية.. والمصالح الحزبية" التى رافقت ظهور كتاب على عبد الرازق .. فالملك فؤاد الأول (١٨٦٩-١٩٣٦م) – خصم سعد زغلول و "حزب الوفد" – كان مع الأزهر ضد كتاب (الإسلام وأصول الحكم). وبعض صحافة "الوفد" مثل مجلة "كوكب الشرق".. كانت – لهذه الأسباب السياسية والحزبية مع على عبد الرازق.. بل إن السكرتير الخاص لسعد زغلول- "الشيخ محمد إبراهيم الجزيرى" خريج مدرسة القضاء الشرعى، ورئيس تحرير "مجلة القضاء الشرعى"- كان هو ومجلته فى صف كتاب (الإسلام وأصول الحكم).. **ومع كل ذلك، وبالرغم من جميع**

ذلك، وقف سعد زغلول الموقف الشرعى، وأتخذ موقع الانحياز إلى علماء الأزهر وطلابه فى الرفض والنقد لما جاء بهذا الكتاب.

ويحكى هذه الصفحة المشرقة من آثار وتأثيرات الأزهر الشريف على سعد زغلول، سكرتيره الخاص "الشيخ محمد إبراهيم الجزيرى"، فيقول :

"أنقل للتاريخ هذا الفصل من مذكراتى، كما كتبته فى حينه؛ لا أستطيع تبديل حرف فيه. وقد يكون الحديث مريراً لا يجمل بى أن أكون أداة نشره، ولكن الأمانة توجب أن أنشره مادمت بصدد إعلان ذكرياتى عن سعد، ففى هذا الحديث على وجهه الآخر، عصبية إسلامية شديدة،ورأى جميل فى الإسلام وأحكامه ومدنيته:

مساء الخميس ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٥:

دخلت إلى مكتب الرئيس (١)، بعد فراغ "دولته" من مقابلة زواره لأقدم له مجلد السنة الثانية من مجلتى (مجلة القضاء الشرعى) والعدد الأول من سنتها الثالثة، فتقبلها بقبول حسن، وشجعنى على الاستمرار فى إصدارها، ووعدنى أن يدلى برأيه فيها بعد أن يتصفح موضوعاتها ثم استرعى **نظرة عنوان المقال الافتتاحى فى العدد الجديد، وهو (الإمامة الكبرى، أو الخلافة)**

---

(١) أى سعد زغلول رئيس مجلس النواب وقتئذ.

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبدالوهاب خلاف، فقال: أو تكتبون أيضاً عن الخلافة؟ (ونحن الآن بعد مرور أيام على صدور حكم هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ على عبد الرازق من زمرة علماء الأزهر الشريف لإصداره كتاب الإسلام وأصول الحكم).

فأجبت "دولته":

نعم، والمجلة تعالج موضوع الخلافة منذ إلغاء الأتراك لها. فقال: وما رأى محرر المجلة؟

قلت: إنه يلتقى مع الشيخ على عبد الرازق فى بعض النقط، ويظهر أن ذلك كان سبباً فى أن كبيراً من رجال السراى استدعى إليه الأستاذ الشيخ خلاف ونصحه أن يكف عن الكتابة فى هذا الموضوع، وأفضى فضيلته إلىّ بذلك طالباً استرداد موضوعه التالى من المطبعة ففعلت.

ثم سألت "دولته": وما رأيكم فى كتاب (الإسلام وأصول الحكم)؟ فاستعد "دولته" كما يستعد المحاضر لإلقاء محاضرة، أو الخطيب لإلقاء خطبة، ثم قال: "لقد قرأته بإمعان لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ أو الصواب، فعجبتُ أولاً كيف يكتب عالم دينى بهذا الأسلوب فى مثل هذا الموضوع؟ وقد قرأت كثيراً للمستشرقين ولسواهم فما وجدت ممن طعن منهم فى الإسلام حدة كهذه الحدة فى التعبير، على نحو ما كتب الشيخ على عبد الرازق. لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه، بل بالبسيط من نظرياته، وإلا

فكيف يدعى أن الإسلام ليس مدنياً ولا هو بنظام يصلح للحكم؟ فأية ناحية مدنية من نواحى الحياة لم ينص عليها الإسلام؟ هل البيع أو الإجارة أن الهبة أو أى نوع آخر من المعاملات؟ ألم يدرس شيئا من هذا فى الأزهر؟ أو لم يقرأ أن أمما كثيرة حُكمت بقواعد الإسلام فقط عهوداً طويلة كانت أنضر العصور؟ وأن أمماً لا تزال تُحكم بهذه القواعد وهى آمنة مطمئنة؟ فكيف لا يكون الإسلام دين حكم؟

وأعجب من هذا ما ذكره فى كتابه عن الزكاة؟ فأين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية؟ إنى لا أفهم معنى للحملة المتحيزة التى تثيرها جريدة السياسة حول هذا الموضوع. و ما قرار هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ على، من زمرتهم إلا قرار صحيح لا عيب فيه، لأن لهم حقا صريحاً، بمقتضى القانون أو بمقتضى المنطق والعقل، أن يخرجوا من يخرج على أنظمتهم من حظيرتهم. فذلك أمر لا علاقة له مطلقاً بحرية الرأى التى تنعيها جريدة السياسة".

وهنا قلت – (أى الجزيرى).

- لعل ما يغيظ السياسة هو أن العلماء لم يندفعوا من تلقاء أنفسهم إلى هذه المحاكمة، وإنما كانوا مسوقين– على رأيها– بجهة يهمها تأييد مركز الخلافة فاستعانت بنفوذ العلماء.

فقـــال:

- "أعرف ذلك، ولكن مهما كان الباعث فإن العلماء فعلوا ما هـو واجب وحق، ولا يجوز أن توجه إليهم أدنـــى ملامـــة فيـــه. والذى يؤلمنى حقاً أن كثيراً من الشبان الذين لم تقو مداركـهم فى العلم القومى، والذين تحملــهم ثقافتــهم الغربيــة علـــى الإعجاب بكل جديد، سيتحيزون لمثل هذه الأفكار خطأ كـــانت أو صواباً، دون تمحيص ولا درس، ويجدون تشـــجيعاً علـــى هذا التحيز فيما تكتبه جريدة السياسة وأمثالها مـــن الثنـــاء العظيم على الشيخ على عبد الرازق، ومن تسميتها له بالعـالم المدقق والمصلح الإسلامى والأستاذ الكبير..الخ. وكـــم وددت أن يفرق المدافعون عن الشيخ بين حرية الرأى وبين القواعد الإسلامية الراسخة التى تصدى كتابه لهدمها".

وهنا جاء موعد العشاء، فختم "دولته" القول برجـــاء الله أن يصلح الأحوال ويوفق الجميع إلى السداد[1].

تلك واحدة من أبرز الصفحات المشرقة فى كتاب فكر وعلـــم الشيخ سعد زغلول باشا: أبن الأزهر الشريف، وثقافتـــه الشـــرعية.. وهى الصفحة التى يتجاهلها العلمانيون، الذين يريدون "سرقة "ســـعد

---

(١) سعد زغلول : ذكريات تاريخية، مرجع سابق، ص ٩١-٩٣.

زغلول، "واختطاف" الثورة التى قادهـا سـنة ١٩١٩ إلـى حظـيرة العلمانية، وتجريد الإسلام وشريعته من الحاكمية فى تدبـير الحيـاة والاجتماع والدولة والسياسة والاقتصاد.

وهى صفحة يتجاهلها- مع الأسـف الشـديد- كثـير مـن الإسلاميين.. فيساعدون بهذا الجـهل العلمـانيين علـى "السـرقة... والاختطاف"

سعد وكتاب طه حسين (فى الشعر الجاهلى):

أما موقف سعد زغلول من كتاب الدكتور طه حسـين (فـى الشعر الجاهلى) والذى شكك فيه بعدد من العقائد التـى وردت فـى القرآن الكريم- من مثل : علاقة الإسلام بملة إبراهيم عليـه السـلام الحنيفية- وفى الرحلة الحجازيـة لإبراهيـم وإسـماعيل- عليـهما السلام.. وفى إقامتهما ورفعهما قواعد البيت الحرام.. فيشـير إليـه سكرتير- محمد إبراهيم الجزيرى- أيضاً، عندما يكتب فيقـول عـن سعد زغلول: **"وكان رحمة الله يرقب باهتمام ما ينشـر مـن الكتـب الحديثة بمصر، فيكلفنى شراءها، ويقرأ منها ما تسمح به الفرصة".**

وقرأت له كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للأستاذ على عبـد الرازق "وزير الأوقاف فيما بعد"، وأدلى إلىّ بـرأى فيـه سـجلته عندى، وسأورده فى هذه المذكرات[1].

وكذلك قرأت له كتاب المرحوم الأستاذ/مصطفـى صـادق الرافعى فى (إعجاز القرآن)، وكتاب الدكتور/ طـه حسـين (فـى

(١) هو الرأى الذى نقلناه من سكرتيره الجزيرى فى هذه الدراسة.

الشعر الجاهلى) ، ورد المرحوم الأستاذ/محمد فريد وجدى عليه، ومحاضرات المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك فى نقده.

وأذكر أنه، رحمه الله، أعجب كل الإعجاب بكتاب الأستاذ محمد فريد وجدى هذا ، وكان قد وضعه فى نقد كتاب (فى الشعر الجاهلى)، وأهدى إلى الرئيس نسخة منه، فلما قرأها كتب إلى الأستاذ وجدى هذا الكتاب البليغ التالى:

"حضرة الأستاذ الفاضل محمد فريد وجدى.

وصلنى كتابك الذى وضعته فى نقد كتاب (فى الشعر الجاهلى)، وتفضلت بإرساله إلىّ. وقرأته فى عزلة تجمع الفكر، وسكون يحرّك الذكر، فراقنى منه قول شارح للحق، ومنطق يقارع بالحجة فى أدب رائع، وتحقيق دقيق فى أسلوب شائق، وإخلاص كامل للدين فى علم واسع، وانتصاف للحقيقة فى احترام فائق. ومجموع من هذه الخصال استمليت منه قلباً فياضا بالإيمان، وعقلاً مثقفاً بالعرفان، ونفساً محلاة بالأدب. فقرت عينا بوجود مثلك بيننا، ورجوت الله أن يكثر من أمثالك فينا، وأن يجازيكم على ما تصنعون بتوفيق الباحثين والمتظاهرين لاحتذاء مثالكم فى دقة البحث، وأدب المناظرة، وإنكار الذات، والانتصار للحق، وبتوفيق الناس لاستماع أقوالكم واتباع أحسنها، والسلام على المهتدين.

١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٦ م سعد زغلول[1]

فلقد قرأ سعد زغلول رد الأستاذ / محمد فريد وجدى على كتاب طه حسين "فى عزلة تجمع الفكر، وسكون يحرّك الذكر"، وأعجب كل الإعجاب بهذا الكتاب، شكلاً ومضموناً، أسلوباً ومنطقاً، أدباً فى التعبير وحجة تفنيد دعاوى الخصم. كما أعجبه فيه "فيض الإيمان" الذى حرك صاحبه للدفاع عن الإسلام، "والعقل المثقف بالعرفان" الذى جعل من فريد وجدى نموذجاً تمنى سعد زغلول أن يحتذ به المتناظرون والباحثون الساعون لانتصار الحق على الباطل فى عالم الأفكار

وإذا كنا قد رأينا "قسوة الحق" عند سعد زغلول فى نقده لكتاب الشيخ على عبدالرازق، عندما اتهمه بالجهل بالدراسة الأزهرية وعلوم الشريعة الإسلامية، وبالسعى لهدم قواعد الدين الإسلامى .. فلقد كانت، "قسوة الحق" هذه متجلية أيضاً فى موقف سعد زغلول من اجتراء طه حسين على القرآن الكريم فى كتاب (فى الشعر الجاهلى).. فعندما زحفت مظاهرة طلابية، غاضبة على هذا الكتاب وصاحبه، إلى "بيت الأمة"، خطب زعيم الأمة فى هذه المظاهرة، مستنكراً ما جاء فى هذا الكتاب وبلغت الإدانة والاستنكار إلى الحد الذى تمثل فيه – وهو يصف صاحب (فى

(١) أنظر كتاب (سعد زغلول : ذكريات تاريخية)، مرجع سابق، ص٣٧.

الشعر الجاهلى) - يشطر البيت الذى يقول : وماذا علينا إذا لم يفــهم البقر ؟!

هكذا تجلت ثمرات الأزهر الشريف فى فكر وحياة ومواقف سعد زغلول، وهكذا كان الشيخ سعد زغلول ابن الأزهر الشــــريف عليه رحمة الله.



تعقيــــب

الأستاذة الدكتورة / كاميليا محمد شكرى



عضو الهيئة العليا ورئيسة لجنة سيدات الوفد

لا يسعنى إلا أن أتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى الجمعية الخيرية الإسلامية بالقاهرة.. متمثلة فى الجمعية العمومية، ومجلس الإدارة، ورئيس مجلس الإدارة، على الدعوة الكريمة التى وجهت للمشاركة فى احتفالية الزعيم سعد زغلول.

وكل التقدير إلى المنهج العلمى الوطنى الذى سارت عليه الجمعية بإقامة احتفاليات لإحياء ذكرى رجال عظماء من أعضائها.. كان لهم فضل الريادة فى إنشاء الجمعية واستمرارها منذ عام ١٨٩٢ كالإمام الأكبر الشيخ مصطفى المراغى، ولطفى باشا السيد، وطلعت باشا حرب، واليوم احتفالية الزعيم سعد زغلول. ومن المؤكد أن أمة لا تحيى ولا تقدر ذاكرة التاريخ فلن تجد فى مستقبلها قدوة تتمثل بها وتسير على خطاها.

أن الدور الوطنى السياسى للزعيم سعد زغلول لا يختلف على عظمته وأهميته أحد فهو الذى حرك روح الوطنية المتأججة فى صدور شعب مصر ووحد الهدف الذى يسعون إليه وخلق ترابطاً وثيقاً بين فئات الشعب رجالاً ونساء، وازدهرت الوحدة الوطنية فى أعلى وأسمى صورها.

وأما الجانب التطوعى الأهلى ... للزعيم ، فلم تسلط عليه الأضواء بالقدر الكافى حيث طغى الجانب السياسى على جوانب العطاء المتنوعة فى شخصيته.

واشتراك الزعيم سعد زغلول فى إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية عام ١٨٩٢ كان الغرض الأساسى لإنشاء مدارس غير خاضعة لسلطة الاحتلال ولمساعدة المحتاجين والفقراء.

ولقد حرص سعد على وضع نظامها الأساسى الذى أكد فيه على فصل العمل الأهلى الخيرى عن العمل السياسى. وهذا إن دل على شئ إنما يدل على عظمة الزعيم وبعد نظره فى تجنب توظيف العمل الخيرى للوصول إلى مآرب سياسية، أو التهديد بتوقفه أن اختلطت الأمور. وهذا يمثل الدعوة الآن إلى مجتمع مدنى قوى يشمل الجمعيات الأهلية والأحزاب والنقابات وبقية مفرداته.

ولن ينسى التاريخ ...ما قدمه الزعيم سعد زغلول لتحرير المرأة المصرية ولدفعها لأن تكون المواطنة المشاركة فى الأحداث الوطنية ١٩١٩.

فبعد أن كانت المرأة المصرية تعيش على هامش الأحداث، وكأنها فى سجن للحريم تحولت بقدرة الحماس والوطنية إلى فدائية تضع رأسها على كفيها تمثلاً بالرجال الذى تعرضوا للسجن والإعدام والموت برصاص المحتل. وسجل التاريخ استشهاد سيدات فضليات وكانت شفيقة محمد "أولى الضحايا من النساء فى ثورة ١٩١٩.

واشتركت المرأة مع الرجال فى المدن والريف على حد سواء فى توزيع المنشورات، والأهم من ذلك إدارة شئون المالية

والإدارية للوفد، فى غياب رجاله فى المنفى••• حتى تستمر جذوة شعلة الثورة فى الاشتعال.

لقد أحدث الزعيم سعد زغلول طفرة حضرية فى أوضاع المرأة المصرية ووضع ثقته فيها فحرك مكنون وطنيتها وبث الجرأة والجسارة والإقدام فيها.

وكانت بداية التنظيم النسائى عندما عقدت السيدات اجتماعاً فى الكنيسة المرقسية المصرية فى أوائل يناير ١٩٢٠ وانتخبن اللجنة التنفيذية للنساء الوفديات التى عملت على تنظيم الصفوف وتنظيم المظاهرات بين النساء، وكانت جموع النساء تتألف من زوجات وأخوات وبنات .. النواب والأعيان والموظفين والمحامين والأطباء والمهندسين والفلاحين وغيرهم من ممثلى طبقات الأمة وعناصرها.

وأعطت زوجة الزعيم المثل الأعلى فى التضحية والصمود...حتى استحقت لقب أم المصريين بجدارة.

كذلك تصدرت الحركة النسائية السياسية هدى شعراوى منذ بدايات ثورة ١٩١٩ وكانت مطالب النساء تتركز على القضايا العامة الوطنية كالاستقلال والمطالبة بالدستور.

ولم يمر موقف سياسى دون أن تشترك المرأة فيه... بحيث أصبح للجنة التنفيذية للنساء الوفديات دوراً مؤثراً فى الحياة السياسية وكان ذلك بفضل الزعيم سعد زغلول.

ولقد أشارت شخصيات عالمية إلى أن مساهمة المرأة المصرية فى الحركة الوطنية فاقت كل التوقعات.

وإن ثقة زعيم الأمة فى قدرات الشعب المصرى رجالا ونساء ، دفع بمفهوم المشاركة فى حمل المسئولية بين الرجل والمرأة سواء بالنسبة للتقدم الوطنى، أو الدفاع عن سلامته وحريته.

إن شعلة الحرية والتنوير التى رفعها الزعيم...امتدت لتشمل الشعب كله، وحرك ما كان ساكنا من أوضاع المرأة المصرية.. التى أثبتت بجدارة أنها تستحق الثقة التى وضعت فيها.

وهناك نقطة فى غاية الأهمية ، هى أن تعدد المواقف الخلافية للجنة التنفيذية للنساء الوفديات مع بعض المواقف السياسية المطروحة حينذاك، والدافع لتشكيل الاتحاد النسائى المصرى سنة ١٩٢٣ الذى اتسمت أهدافه بالوعى والجرأة.

مما لا شك فيه تحسب لصالح الزعيم سعد زغلول... الذى دفع بالمرأة إلى مجالات جديدة وآفاق واسعة كفيلة بأن تهيا المرأة بأن تكون على قدم وساق مع الرجل ومع القيادات السياسية.

رحم الله الزعيم ، الذى أعطى فأجزل العطاء ، باعث النهضة النسائية المصرية.

محتويات الكتاب

إنجــازات جديـــدة
خلال الأعوام الثلاثة من ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٢

خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة. استطــاعت الجمعية الخيرية الإسلامية . تجديـــد و تطوير أنشطتها المعتادة. سواء من حيث أنشطـــتها الثقافية أو صرف معاشات شهريــة للمحتاجين غير القادرين على العمل. أو رعاية المســنين أو مركزها للعلاج الطبيــعى أو مدرستها الصناعية للبنات بحلوان. و تميزت الأعــوام الأخيرة بإضافة إنجازات جديــدة :

أولا : إضافة ثلاثة أنشطة جديدة هى: **تحفيظ القرآن. و مشروع الأسر المنتجة.** و إيــواء الطالبات و الموظفات المغتربات.

ثانيا: شراء نحو فدان و نصف فدان بأرض مديـــنة ٦ أكتوبر لإقامة مجمع خيرى يشتـمل على دور مستقلة لرعاية اليتامى. و الأحـداث المشردين. و المســنين و مسجد جامع. على أن يمول كل دار من هذه الدور أحد رجال الأعمال و يســمى باسمه. و قد تعـهد رجل الأعــمال الدكتور/ **عبد المنعم سعودى** بأن يعطى القـدوة بنفسه لتمويل إحدى هذه الدور.

ثالثا: زيادة أصول و موارد الجمعية من خلال وقفيات حديثـــة مقدمـــة من بعض أعضاء الجمعية أو أعضاء مجلس إدارتها أو من فــوائض بعض الأوقاف القــديمة. و قد تجاوزت قيمة هذه الوقفيات الحديثـــة. مــبلغ و قدره **مليونين من الجنيهات**. و تدر عائدا إضافيا سنويا يقدر بنحو ربع مليون جنيه.

رابعا: تخصيص إحدى وقفيات الجمعية القديمة لتبــنى **٣٧٥ طالبا و طالبة** من الأوائل المتفوقين فى الثانوية الأزهرية و الثانوية العامة. و المحتاجين ماليـــا. مـن الــذين يلتحقون بكليات اللغة العربية و الدراسات العربية الإسلاميـــة. و ذلك بصــرف مــنح دراسية شهرية دائمة و منتظمة لهم بواقع خمسين جنيها شهريـا لكل منهم.

خامسا: إصدار سلسلة كتب عن **الاحتفاليات بالرواد الذين أعطوا الكثــير للجــمعية**. وقد صدر خلال الأعوام المذكورة. كتب عن الإمام الأكبر الشيخ مــصــطــفى المــراغى و طلعت باشا حرب و لطفى باشا السيد. و سعد باشا زغلول فضلا عن ثــلاثة مجلدات تضم محاضرات الجمعية خلال ستة مواسم ثقافية بالإضافة إلى **ندوات عن الــوقف. اللغة العربية بين الواقع و المأمول و ندوة العمل الخيرى موضوع هذا الكتــاب. إضافة إلى إصدار كتيب عن البيان الوثائقى للأوقاف الصادرة لصالح الجــمعية.**

سادسا: الشروع فى إقامة معهد فنى و تدريب مهنى بأرض الجمعية بحلوان.

الكتاب تنفيذ و إخراج الأستاذ فتحى الملا

المركز الرئيسى للجمعية ٣١٣ شارع بورسعيد - السيدة زينب - القاهرة